ثورة آدم

"مجموعة قصصية"

شـــادي تُـــــدري

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: ثورة أدم

المؤلف: شادي تدري

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي
رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢٢٦٣٨

الترقيم الدولي: ٣-٥٢-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة — المدير العام

محمد عز الدين — **صبرينة غلمي**

مدير التنفيد

جلال عز الدين

إهداء

إلى كُل ثائرٍ.. ومُتمرّد، إلى كُل مُلحِد، إلى كُل مُتطرّف، إلى كُل خائنٍ للوطن، إلى كُل عاشقٍ بحَق، إلى كُل مسئولٍ ومُشرّع قوانين، إلى كُل مجنون، إلى كُل شقيقٍ وشقيقة، إلى كُل شاذ جنسياً، إلى كُل مَن يقرأ كتابي هذا، إلى كُل مَن يختلفُ أو يتفقُ معي على السَواء في رؤيتي هذه، إلى أطيافِ المجتمع برُمَّته.

ملحوظة: هذا الكتابُ لا يحملُ إلا رؤيتي وقناعاتي الشخصية ككاتب.. والهدفُ منه هو طرحُ بعضٍ من القضايا الاجتماعيةِ الشائكةِ ومحاولة مُعالجتِها قدر الإمكان، وليس الهدفُ هو الترويجُ بما يتضمنُه من أطروحاتٍ.

وأتمنّى أن يحوذَ الكتابُ على إعجابِكم.

تتكون المجموعة من ثمانِ قصص

١- ثورة آدم

٢- الحقيقة

٣- لن أغترب

٤- مارلين

٥- قانون ع ن

٦- مجنون كاميليا

٧- البلامين

٨- شاذ ولكن..

مُقدمة

"ثورة آدم"

مَن مِنّا لا يثورُ؟! كُلُّ شخصٍ مِنّا ثائرٌ بطبعه، مِنّا مَن يثورُ على شخصٍ ما، ومَن يثورُ على شيءٍ ما، ومَن يثورُ على وضعٍ ما.

ولكن، ماذا إن كانت الثورةُ على الله؟! ومن ثَمَّ على النفس؟! ماذا إن كانت الثورةُ على الصراعِ بين الأديان السماوية؟! ماذا إن كانت على التعصُّب؟! ماذا إن كانت الثورةُ على الوطن؟! مَن يبقى ويسود؟ الوطنُ أم المُحتل؟ ماذا إن كانت الثورةُ على الزواجِ بمفهومه التقليدي، ولا سِيّما إن كان عن حُب؟! ماذا إن كانت الثورةُ على القانون؟! والذي كثيرا ما يحكمُ على الجريمةِ ظاهرياً، دونَ النظرِ إلى دوافع ارتكابِها! ماذا إن كانت الثورةُ على الزمن؟! أيعودُ الزمنُ إلى الوَراءِ؟! ماذا إن كانت الثورةُ على الأعرافِ والتقاليد والقِيَمِ المجتمعية؟! ماذا إن كانت الثورةُ على الشُذوذ الجنسي، والتغلبُ عليه بصَدمةٍ لا تقلُّ عنه بَشاعةً؟!

كُل هذا وأكثرُ يطرحه الكتابُ ويناقشه باستفاضةٍ وبشكلٍ لا يثيرُ الملل، ففي بعضِ أجزاءِ الكتابِ.. ستكونُ أنت بطلَ القِصَّةِ.. بل والثائرَ أحياناً، وفي البعضِ الآخرِ.. ستكونُ جُزءاً لا يتجزّأُ من الحَدَثِ.. بل ومحور الحَدَث، فأنت البطلُ أحياناً، والحَدَثُ أحياناً أخرى، والثائرُ أخيراً، فالثورةُ حَقٌّ للجميعِ، وليست حِكراً على أحدٍ بعينه، ولكن.. إن قُمتَ بالثورةِ، فلا بُدَّ لك وأن تتحمَّلَ عَواقبها.. عَظيمةً كانت أم وَخيمةً.

القصة الأولى

"ثورة آدم"

"آدم"، يسير بخُطى بطيئة، في طريقه إلى... إلى أين؟! لا يعلمُ إلى أين يذهبُ! فقرَّر "آدم" العودةَ إلى حيث كان، وما أن شرع في العودةِ، إذ به يتوقَّفُ مرَّةً أخرى، ماذا جرى؟! إنه لا يعلمُ من أين أتى، ولا إلى أين هو ذاهبٌ! إنه ضَلَّ الطريق! وليس الطريق فحسب، إنه ضَلَّ كُلَّ شيءٍ! فكُلُّ ما يذكرُه عن نفسه.. أنه شابٌّ في الثلاثين من العُمرِ.. حاصلٌ على ليسانس الحُقوق بتقدير جيد، ويعملُ كاتباً بأرشيفِ إحدى المحاكم، لا يملكُ شيئاً! لا عائلةً ينتمي إليها، ولا أسرةً يفخرُ بها، ولا عملاً مُشرِّفاً يعتمدُ عليه، ولا صديقاً يلجأُ إليه!

فهل يذهبُ إلى عائلتِه التي لم تفهمه يوماً؟! فإن كان للجَهلِ مَنبعٌ، فعائلتُه هي هذا المَنبع! أم يذهبُ إلى أسرتِه! كيف تكونُ هذه الأسرةُ والزوجة خائنة؟! فإن كان للخِيانةِ صِفةٌ، فالزوجةُ هي هذه الصِفة! أم يذهبُ إلى عملِه الذي يَمقتُه بشِدَّةٍ؟! فإن كان للكراهيةِ عنوانٌ، فعنوانُها هو عملُه

هـذا! أم يـذهبُ إلى صـديقِه الشـاب، والـذي يَبـدو كَهلاً مـن فَـرطِ هُمـومِ الحيـاةِ، والرضـا بكُلِّ مـا يَحـطُّ عليـه مـن أقـدارٍ؟! فـإن كان للـذُلِّ عاشـقٌ، فالعاشقُ هو هذا الـصديق!

وفجـأةً، شـعر "آدم" بـالجوعِ، التفـت حولـه، فلـم يجـد أمامـه إلا شـجرةً بهـا بعضٌ من ثمارِ التُفاح الطـازجة، فـاقتطف إحدى الثمار، وأخذ يأكلُ، ثم جلـس أسـفلَ الشـجرةِ، وفيمـا يتنـاولُ "آدم" الثمـرة، أخـذ يتأمَّلُ في قِصَّـةِ سُقوطِ سيدنا "آدم" من الجَنَّةِ، فقد أسـقط الله سيدنا "آدم" من جَنَّتِـه، مُلقِيـاً إيّاه في أرضٍ خَرِبـة، وذلـك بسـببِ عِصيانِه إيّاه.. بأكلِـه مـن الشـجرةِ الملعونـةِ (شجـرة معرفـة الخير والـشر).

ومثلمـا انفتحـت عَينـا سـيدنا "آدم" عـلى الشَـرِّ بَعـدما فَـرَغَ مـن تنـاول التُفاحـةِ، هكـذا أيضـاً، مـا إن انتهـى "آدم" مـن تنـاول الثمـرةِ، إذ بـه يشـعرُ أن عَينيـه قـد انفتحتـا، وكأنـه كـان مُغيَّبـاً.. مُغمَضـاً طِيلـةَ هـذه السَـنواتِ الماضيـةِ! كيف؟!

سيدنا "آدم" كان في قَبضةِ الله، وتحت حُكم الله، ولـم يكـن بيده شيءٌ إلا أن يخضـعَ لأمـرِ الله، فعنـدما عَصـى سـيدنا "آدم" أمـرَ الله، عـاقبـه اللهُ بالسُـقوطِ والشَـقاءِ والمـوتِ! ولـم يَكتـفِ اللهُ بـذلك! فـزاد عليـه أنـه إن لـم

يَسِر على نَهجِ الأنبياءِ والمُرسَلين كما أمر الله، فسيعاقبُه اللهُ العِقابَ الأبدي (نار جُهنَّم)! فأصبح سيدنا "آدم" بين نارين! نار التعبِ والشَقاءِ في الأرضِ، والتي لا بُدَّ وأن تنتهيَ حَتماً بالموتِ! ونار جُهنَّم التي ستكونُ مَصيره إذا ما استمرَّ في العِصيانِ ومُخالفةِ شَرائع الله! ولم يشمل أمرُ اللهِ هذا سيدنا "آدم" فحسب، بل شمل الخليقةَ كُلها!

ولكن، "آدم" يرى أن الأمرَ الآنَ يختلفُ تماماً، إنه يرى أن الله مثله مثل أي حاكمٍ ظالم، فهو لم يَكتفِ بمُعاقبةِ "آدم" بطَردِه من الجَنَّةِ لعِصيانِه أمره فحسب! بل حكم عليه بالموتِ المُحتَّم بَعد سَنواتٍ من الشَقاءِ في أرضٍ خَرِبةٍ! عَلاوةً على أنه ينتظرُه عِقابٌ أبديٌّ لا ينتهي إذا ما استمرَّ في عِصيانِ أوامره ومُخالفةِ شَرائعه! ولكن، كيف يختلفُ الأمرُ الآنَ بالنسبةِ إلى "آدم"؟!

"آدم" يرى أننا في القرنِ الحادي والعشرين، ولدينا من الأفكارِ والاكتشافاتِ والاختراعاتِ والعِلمِ ما يفوقُ عِلمَ الله، يرى أننا في عصر الثورةِ، الثورة علي أي نظامٍ فاسد، الثورة على أي حاكمٍ ظالم، فالثورةُ خيرٌ سبيلٍ لإسقاطِ أي حاكمٍ مَهما بلغ من سَطوةٍ ونُفوذٍ، ولكن.. الثورةَ هُنا كانت على أشخاصٍ آدميين محدودين، فكيف نثورُ إذاً على اللهِ الغير محدود.. اللانهائي؟! إن الثورةَ هُنا ثورةٌ فِكرية، وليست مُجرَّد شعاراتٍ أو

تظاهراتٍ أو احتجاجاتٍ، ولكن كيف أيضاً؟! كيف نثورُ بأفكارِنا على الله؟! أخذ "آدم" يفكرُ ويفكرُ ويفكرُ، وأخيراً، قرَّرَ، أن يقودَ موجةً من الإلحادِ على مستوى العالم، داسّاً السُمَّ في العسل، قرَّرَ أن يُشكِّكَ البشرَ في وجودِ الله، مُتحدِّياً أي شخصٍ يثبتُ مادياً حقيقةَ وجودِه، قرَّرَ أيضاً أن يعملَ بالسِحرِ، والتنبؤ بالغَيبياتِ كي ما يجذبُ العالمَ من هُنا ومن هُناك، من شرق ومن غرب.. ورُبما عِندئذٍ يصنعُ منه العالمُ رَبّاً وإلهاً.. خالقاً ومَعبوداً، ومن ثَمَّ، يتخلّى البشرُ عن رَبٍّ لا يرونه، ويتمسَّكون برَبٍّ يحققُ لهم ما يريدونه.

ولكن.. ماذا بَعد؟! ماذا لو ألحدت الخليقةُ بأكملِها؟! إنها ستموتُ حَتماً.. وسيكونُ مَصيرُ "آدم" وأمثالُه الهلاكَ الأبدي، لا.. هذا ليس صحيحاً، إن الحاكمَ يسقطُ فقط بثورةِ الاحتجاجاتِ، أمّا اللهَ فبثورةِ الفكرِ والإلحادِ، فسيسقطُ اللهُ لا مَحالة إن ألحدت الخليقةُ بأكملِها.. ولا يكونُ للهِ ولا للموتِ بَعد سُلطانٌ على بني آدم، ولكن.. ما الدليلُ على ذلك؟!

لماذا خلق اللهُ البشر؟ بالطبع ليعبدوه، وإن لم يجد مَن يعبدوه؟ فلا يوجدُ اللهُ بَعد، فكما أن الشعبَ يصنعُ الحاكم، هكذا العِبادُ والمؤمنون هُم مَن يصنعون الله، وبمُعادلةٍ بسيطة نستنتجُ أنه متى ثار الشعبُ على الحاكمِ.. فإنه يسقطُ على الفورِ.. فليس له بَعد مَن يحكمه، وهكذا

أيضاً، متى ثار العِبادُ والمؤمنون على اللهِ.. فإنه يسقطُ لا مَحالة.. فليس له بَعد مَن يأمرُه فيطيعه، نعم.. إنها حُجَّةٌ بَيِّنة، ودليلٌ قاطع، وبُرهانٌ ساطع للثورةِ على اللهِ.

لكن، هل "آدم" حقاً يؤمنُ بوجود الله؟ نعم.. "آدم" يؤمنُ بوجود الله وحُضوره وقوته، فلماذا يفعلُ هكذا إذاً؟! لماذا يريدُ أن يثورَ على اللهِ ما دام يؤمنُ بوجوده؟!

إن "آدم" يريدُ أن يثورَ على المنطق، يريدُ أن يثورَ على النظامِ الذي فرضه اللهُ على سيدنا "آدم" وبنيه، يريدُ أن يثورَ على العُبوديةِ، يريدُ أن يثورَ على الأقدارِ التي تعبثُ بالخليقةِ جَمعاء، يريدُ أن يحيا حُراً، غير مُقيَّدٍ بأيَّةِ شَرائع أو فُروضٍ دينية.

وفيما كان "آدم" مُتأمِّلاً في كُل هذا، حَلَّ عليه سُباتٌ عميق.

وإذ به يرى نفسه، في قصرٍ فخم.. واسع الأرجاء، وعلى يمينه يجلسُ ملكٌ عظيمٌ في مقصورةٍ ضخمة، وأمامه الكثير والكثير من الخَدَمِ والجاريات، مشهدٌ أشبهُ بالحَواديت الأسطورية!

أدرك "آدم" أنه ابنٌ لهذا الملك العظيم، هذا الملك الذي يأمرُ.. فيُطاع، يطلبُ.. فيكون.

هذا الملكُ كان يحكمُ دولةً عُظمى بضَواحيها، يُحبُّه الشعبُ، يهتفُ له ليلاً ونهاراً، عاش الملك.. عاش الملك.

ولكن كان "آدم"، ابنه، وحيده، يحقدُ على أبيه الملك كُلَّ الحِقدِ! يتمنّى له الموتَ العاجل! ينتظرُ على أحرِّ من الجَمرِ، يومَ يجلسُ على هذه المقصورةِ الملكية، ويهتفُ له الشعبُ، عاش الملك.. عاش الملك!

وكانت الحياةُ هادئةً في قصر الملك، ولكن، لم يَدُم هذا الهُدوءُ طويلاً.

لقد تملَّك الشيطانُ من عقل "آدم" ابن الملك.

فقرَّرَ "آدم" الابن، تحريضَ الشعبِ على أبيه الملك للثورةِ ضِدَّه، زاعماً، أن الملكَ على وشك الدخولِ في حربٍ مع إحدى الدولِ العُظمى، وبالطبع سيستدعي الملكُ أبناءَ الشعبِ للالتحاقِ بالجيشِ الملكي ومُحاربةِ هذه الدولة، وهذه الحربُ، ولا سِيّما مع هذه الدولةِ لا بُدَّ وأن تبوءَ بالفشل، وينتجُ عن هذه الهزيمةِ، فِقدان الشعبِ لأبنائهم مِمَّن هُم في عُمرِ الزُهور، وليس هذا فحسب، إنهم سيحيون أيضاً في ظِلِّ احتلالِ هذه الدولة، بكُلِّ ما تحملُه كلمةُ الاحتلالِ من مَعنى، سَبي النساء! قتل الشُيوخِ والأطفال! استعباد الرجالِ وإذلالِهم في الحُصولِ على قوتِهم اليومي!

وأخبرهم "آدم" الابن، أن الحَلَّ الوحيدَ لهذا، الثورة، ووعدهم، متى ثاروا وانقلبوا على أبيه الملك، سيتولّى هو المُلكَ عِوضاً عنه، وطمأنهم أنه لن يدخلَ في حربٍ طِيلةَ فترةِ حُكمِه.

إن الشعبَ يعرفُ جيداً مَن هو الملك، ومَن هو "آدم" ابن الملك، فالملكُ يفيضُ عليهم بخيراتٍ ونِعَمٍ لا تُحصى.. ويثقون فيه ثِقةً عَمياء، إنه لا يمكنُ للملكِ أن يفعلَ أمراً يَضرُّ بمصلحةِ الوطنِ أو مصلحةِ شعبِه وإن بَدا ذلك! والشعبُ برُمَّتِه على أهبَّةِ الاستعدادِ.. لا أن يُقدِّموا أبناءَهم فقط فِداءً للوطن، بل أنفسَهم أيضاً إذا ما تطلَّبت حاجةُ الوطنِ لذلك، أمّا "آدم" ابن الملك، فهذا ينتظرُ المُلكَ اليومَ قبلَ غَدٍ! ومن المؤكَّدِ أن هذه كُلها مُجرَّد مَزاعم منه للوَقيعةِ بين الشعبِ وأبيه الملك.

فأوهمه الشعبُ بتصديقِ مَزاعمه هذه، وتظاهروا بالانصياعِ له ولكلامِه، وذلك ليوقعوه في شَرِّ أعمالِه، وأخذ الشعبُ يكمنُ لـ"آدم" ابن الملك.. ينتظرون في شَغَفٍ ما سيفعلُه الابنُ في حَقِّ أبيه الملك كي ما ينتقموا منه شَرَّ انتقامٍ.

وسُرعانُ ما ذاع الخبرُ في المملكةِ حتى بلغ مَسامع الملك، فحَزِنَ على ابنه أشدَّ الحُزنِ، وبكى عليه بُكاءً مُرّاً، كثيرا ما كان يحاولُ جاهداً.. أن يُطفِئَ

شَـرَّ ابنِـه بفَـيضٍ مـن الخيراتِ والمُشـتهياتِ التي يمنحُهـا إيّـاه حتى دونَ أن يطلـبَ! ودائمـاً مـا كان يقـولُ لـه، كُلُّ مـا لي، هـو لـك أيضـاً، ولكـن، دونَ جَدوى!

"آدم" الابنُ يعيشُ في قصرٍ مَليءٍ بالنِعَمِ والخيراتِ، ابنٌ لملكٍ عظيم، يُحبُّه الشـعبُ إلى حَدِّ العِبادةِ، لديه مُستقبل مُشرِق، لا بُدَّ وأن يَرِثَ مُلكَ أبيه بَعدَ وَفاتِه، كُل هذا وأكثر، جعل من "آدم" الابن.. ناقماً! حاقداً! حانقاً على أبيه الملك! بدلاً من أن يشكرَ أبيه الملك على كُلِّ هذه النِعَم!

وليت "آدم" يكتفي بتحريضِ الشعبِ على أبيه الملك، فليس ببَعيدٍ عليه أن يقتلَه، نعم.. يقتله، من المؤكَّدِ الآنَ أنه يخشى من أبيه الملك أن يقتلَه نَقمةً متى أُفتضِحَ أمرُه لديه، فلا بُدَّ له أن يتغذّى بأبيه الملك قَبلما يتعشّى هو به.

ولكن، ما العملُ إذاً؟ هل يقتلُ الملكُ ابنَه قَبلما يقتلُه الابن؟! لا يمكنُ لأي أبٍ حقيقي فِعلَ مثل هذا الأمرِ مَهما بلغ الابنُ من جَبروتٍ وقسوةٍ نَحوه، ولكن.. ماذا إذاً؟ هل يستسلمُ الملكُ لجَهالاتِ وحَماقاتِ ابنِه "آدم"؟!

أخذ الملكُ يفكرُ، إلى أن قرَّرَ، أن يحتاطَ لنفسِه ولابنِه، ويأخذَ حَذَرَه من ابنِه هذا، فإن كان "آدم" ابنه ينوي على الشَرِّ، فلا بُدَّ له أن يقتلَ أبيه الملك في غَفلةٍ منه، لا بُدَّ أنه سيقتلُه وهو نائم في مقصورتِه.

وبالفِعلِ، صَدَقَت وَساوِسُ الملك، ففي مُنتصفِ الليلِ، ووسط الظلامِ الدامس، إذ بـ"آدم" الابنُ يدخلُ إلى مقصورة الملك مُندسّاً، في هُدوءٍ، وبخُطى بطيئة، وبيده سِكّين، يضعُه بعُنفٍ على رقبةِ أبيه الملك، وأخذ يجزُّها! حتى فَصَلَ رقبة أبيه عن جِسمِه! وخرج سريعاً إلى شُرفةِ القصرِ، مُمسِكاً برأسِ أبيه الملك مُفتخِراً! وأخذ يذيعُ وينادي في الشعبِ، وهو في بالغِ سَعادتِه! مات الملك.. مات الملك! تلك الكلمةِ التي بات ينتظرُها طِيلةً من السنواتِ، ها قد تحققت الآنَ.

ولكن، تأتي الرياحُ بما لا تشتهي السُفنُ، أخذ الشعبُ يثورُ على هذا الابنِ العاق.. المُتمرِّد.. السَفّاح، فاندهش "آدم" الابنُ مُتسائِلاً، لماذا كُلُّ هذا الشَغَبِ؟! ألا ينبغي اليومَ أن تفرحوا معي؟! ألا ينبغي اليومَ أن تُنصِّبونني عليكم مَلِكاً لأحكمَ بينكم بالعَدلِ والاستقامةِ كما عاهدتُكم؟! فقال أحدُ الثوار، مَن قتل أباه بهذه البَشاعةِ، لا يمكنُ له أن يحكمَ شعبَه بالعدلِ والاستقامةِ.. لا بُدَّ لك ولأمثالِك أن يُحرَقَ حَيّاً حتى الموتِ.

فهرع "آدم" الابنُ سريعاً من شُرفةِ القصرِ، وفجأةً، وفي باحةِ القصرِ، يصطدمُ، بأبيه الملك! كيف؟! الملكُ حَيٌّ يُرزَق! كيف و"آدم" الابنُ قد ذبحه للتَو بيده؟!

عندما قرَّرَ الملكُ أن يحتاطَ، ويأخذَ حَذَرَه من ابنِه هذا.. أصدر أمراً إلى أحدِ النحّاتين أن يصنعَ تمثالاً من الشمعِ بنفس حجمه وهيئته بشكلٍ لا يمكنُ تمييزُه عن الطبيعي.. وأمره أن يصنعَ هذا على وجه السُرعةِ وفي سِرّيةٍ تامة.. ويضعه في مقصورتِه.

وأخذ الملكُ يرقبُ ابنَه من إحدى زوايا المقصورةِ لحظةً بلحظةٍ، وكلما كان يقتربُ الابنُ شيئاً فشيئاً من تمثالِ الملك، كانت تنهمرُ دموعُ "الملك" في البُكاءِ.

ولكن الآنَ، يحتضنُ الملكُ ابنَه "آدم"، وينهمرُ كلاهما في البُكاءِ، الملكُ يبكي شَفَقَةً على ابنِه، والابنُ يبكي ندماً على ما فعله نحوَ والدِه.

ولكن، قرَّرَ "آدم" الابنُ أن يثأرَ لأبيه الملك من نَفسِه، فالتمس الابنُ من أبيه ألا يظهر للشعبِ الآنَ، والشعبُ سيثأرُ له منه.

ولكن، وسطَ دموعٍ جارفةٍ على خَدَّي الملك، ترتسمُ على شَفتيه ابتسامةٌ راضية، وأخذ يقولُ له، أتعتقدُ أنني يومَ وضعت التمثالَ الخاص بي في

مقصورتي أنه بسببِ خوفي منك؟! لا، بل خوفاً عليك، فالملكُ وإن مات، فذُيولُه باقية، فكانت حَيطتي وخِطَّتي هذه لأجلِك أكثر مما هي لأجلي، فأنا أحكمُ شعباً أعرفُه جيداً، أعرفُ أنه يُحبُّني مثلما أحبُّه، أعرفُ أنه لن يثورَ عليَّ ما دُمتُ غير مُقصِّرٍ في حَقِّه، أعرفُ أنه لا ينصاعُ إلى أيَّةِ افتراءاتٍ أو أكاذيب، أعرفُ أن أحميَ ابني من شَرِّه، وأن أحتاطَ له وقتما يَجِبُ الحمايةُ والحَيطةُ لذلك، بل وأحوِّلُ شَرَّه هذا إلى خَيرٍ مُطلَق، فأنا الملكُ، الملكُ الذي يجيدُ إعدادَ الخِططِ ببراعةٍ، القادرُ على احتواءِ شعبِه وإرضائه وقتما وكيفما شاء.

فما كان من "آدم" الابن إلا أن يصرخَ نادماً على ما اقترف في حَقِّ أبيه الملك، أخطأتُ يا أبي وقُدّامَك، ولستُ مُستحِقّاً أن أُدعى لك ابناً بل اجعلني كأحدِ أجرائِك.

فرَبَتَ الأب الملك على كتف "آدم" ابنه في حُنوٍّ قائلاً، ابني كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجِد.

وأخيراً، استيقظ "آدم" من سُباتِه العميق، وفرك عينيه، ثم نظر حوله، فوجد نفسه أسفلَ الشجرةِ، حيث كان يتناولُ الثمرة، وقال لنفسِه، ما هذا الذي رأيتُه؟! ما هذا الحُلمُ الغريب؟! لا، إنه ليس حُلماً، بقدرِ ما هو

رؤيا ورسالة إلهية، نعم، رسالة إلهية، ثم رفع عينيه إلى السماءِ، وبَسَطَ يديه إلى أعلى، وعيناهُ تنهمران بدُموعٍ خالصةٍ، وأخذ يتضرَّعُ إلى اللهِ قائلاً:

أشكرُك يا رب، أشكرُك يا إلهي، الذي أعلمُ يَقيناً أنه موجودٌ ويسمعُني الآنَ، أشكرُك يا أبي من أعماقِ قلبي، لأنك عرَّفتني أنا الجاهل مَن أنت، فلولا هذه الرؤيا التي رأيتُها، ما كُنتُ عرفتُك حَقَّ المعرفةِ، لقد عرفتُ أنك أنت الملكُ وحدك، رحيمٌ ورؤوفٌ على كُلِّ العِبادِ، تُشرِقُ شَمسَك على الأبرارِ والأشرارِ، على الصالحين والطالحين على حَدٍّ سَواء، ربُّ الكُلِّ، أبٌ للكُلِّ، إنني أتحاورُ معك حوارَ الابنِ مع أبيه، وليس العبدِ مع ربِّه أو سيِّدِه، الآنَ أرى الفُروضَ والشَرائع الدينية ما هي إلا وصايا محيية لتَقبُّلِ الآخرين، والحياةِ معهم في مَحبَّةٍ وسَلامٍ، إنني أدركُ الآنَ خِطَّتَك المُحكَمة في حياتي، وكذلك تدبيرك الفوقاني، فما أبعدُ أحكامَك عن الفَحصِ، وطُرقَك عن الاستقصاءِ!

إنه كان لك ومن حَقِّك يا رب أن تُميتَني شَرَّ مِيتةٍ عندما قرَّرتُ الثورةَ عليك بموجةٍ من الأفكارِ الإلحادية، ولكنك! لا تشاءُ موتَ الخاطئ مثلما يرجعُ ويحيا! فأريتني رؤيا جعلتني أدركُ حُبّاً وحُنوّاً لم أدركه قَبلاً! حُب الأبِّ لأبنائه، حتى وإن أذنبوا في حَقِّه شَرَّ ذَنبٍ! فقد حوَّلت الذنبَ إلى

حُب! حوَّلت الشرَّ إلى خير! حوَّلت الانتقامَ إلى نظرةِ مَلام! حوَّلت العُقوبةَ إلى خَلاص! حَقّاً، الله مَحبَّة، ولا شيئاً يفوقُ المَحبَّة.

فالآنَ أرى جَهالةَ عائلتي، ما هي إلا بَساطة مُفرِطة، وخِيانة زوجتي، ما هي إلا شَك أحمق مِنّي، وعملي المنبوذ، ما هو إلا حُلم لكثيرين آخرين، ورضا صديقي، ما هو إلا قناعة مُطلَقة.

إن الثورةَ الآنَ، ليست ثورةً على اللهِ، إنها الثورةُ على نفسي الغاشمة، على أفكاري البالية، على اعتقاداتي الخاطئة.

ها أنا أعلنُها لك وبصراحةٍ مدوِّية، وعن قَناعةٍ تامة، أحبُّك، أحبُّك، أحبُّك يا رب، لأنك أحببتني قَبلاً.

تمَّت..

القصة الثانية

"الحقيقة"

كُنتُ أبكي جالساً أسفلَ إحدى المظلات.. وإذ بصديقي يسألُني فى عَجَبٍ: ما بالك تبكي يا صاحب؟!

فقُلتُ في أسى: أما ترى ما يفعلُه المُتطرّفون من المسلمين بالمسيحيين من حرقٍ وقتلٍ واختطافٍ؟! أما ترى ما يفعلُه المُتطرّفون من المسيحيين بالمسلمين من سَبٍّ وانتهاكٍ للمُحرَّماتِ الدينية؟!

فقال آسِفاً: أرى وأعلمُ جيداً.. ولكن.. ما باليَد حِيلة!

فقُلتُ في أسى: ليتَهم يعلمون الحقيقة!

فقال فى عَجَبٍ: وما الحقيقة؟!

- حلمتُ حُلماً ليلةَ البارحة.. يَكادُ لي أنه الحقيقة.

فقال بلا مُبالاةٍ: وما فَحواه؟

- كان هناك صديقان.. أحدُهما مسلمٌ مثلك.. والآخرُ مسيحي مثلي، مُتديّنان.. لا يفوتُ المسلمُ فَرضاً.. ولا المسيحي قُدّاساً، كانا يُحبّان بعضهما البعض مَحبَّةً خالصة، فقد كان ينتظرُ كُلٌّ منهما الآخرَ لتناولِ الإفطارِ سَوياً عَقِبَ صَلاةِ الجُمعةِ وقُدّاسِ الأحدِ، غير مُبالين لما يحدثُ حولَهما من انتهاكٍ للمُحرَّماتِ الدينيةِ.. معتقدين ذلك جَهلاً بالدينِ وإساءةً له، فقد كانت صداقتُهما تتوطَّدُ عَمّا كانت رغمَ تلك الظُروفِ المُشينةِ! وذاتَ يومٍ.. كان يصطحبُ كُلٌّ منهما الآخرَ لشراءِ ملابس العيد.. حيث كان عيدُ الأضحى المبارك يتزامنُ مع عيدِ القيامةِ المجيد، وإذ بهما يُصدمان بإحدى عَرباتِ النقلِ، فسقط كلاهما طريحين على الأسفلت، وعرباتٌ مُتعاقِبةٌ أخذت تدهسهما بلا شَفَقَةٍ أو رَحمةٍ! حتى تمزَّق جُثمانُهما البَتَّة!

ثم نظرتُ إلى صديقي.. وإذا به يبكي.. فسألتُه في عَجَبٍ: لِمَ تبكي؟!

فقال في أسى شديد: ما ذنبُ هَذين الضَحيتين البريئتين المحبين لبعضهما البعض أن يموتا بمثل هذه الميتةِ الشَنعاء؟!

فقُلتُ: هذا ما يُفعَلُ بنا كُلَّ يومٍ!

فسألني في عَجَبٍ: كيف؟!

- أليس ما يفعلُه المُتطرّفون من المسلمين والمسيحيين من انتهاكٍ للمُحرَّماتِ وغيرها بجريمةٍ؟! ألم يميتونا نحن الضَحايا بأشنعِ مِيتةٍ كُلَّ يومٍ؟! ألم يختلسوا بهجتَنا بل وحياتنا ليلةَ أفراحِنا وأعيادِنا؟! أتعلمُ ماذا كان مَصيرُ هَذين الضَحيتين بَعدَ الموتِ؟!

- لا أعلم.

- كُنتُ أعتقدُ أثناءَ حُلمي.. أن المسيحي مَن سيدخلُ الجَنَّة.. وِفقاً لمُعتقداتي.. وعلى النَقيضِ ما حدث!

فقال صديقي، وقد ارتسمت على شَفتيه ابتسامةٌ خفيفة: إذاً فالمسلمُ فقط مَن دخل الجَنَّة.

- ليس بصحيح، كلاهما دخلا الجَنَّة.

فقال في عَجَبٍ: كيف؟! مَن منهما على صَوابٍ؟!

فقُلتُ واثقاً: كلاهما على صَوابٍ.

فقال في تردُّدٍ مُمتعِضٍ: ولكن..

فقاطعتُه قائلاً: أليس هذان بمُتديّنين.. يعبدان اللهَ الواحد؟! أتعدّى أحدٌ منهما حُرمةَ دِينِ الآخرِ؟! ألم يكونا متحابين متسامحين لبعضهما البعض؟! ألم يكونا بارَّين أمامَ اللهِ؟! إذاً.. فما الذنبُ الذي اقترفاه؟! أذنبُهما أن أحدَهما مسلمٌ والآخرَ مسيحيٌّ؟! أليس اللهُ بعادلٍ؟! حاشا، أليس مَن جعل المسلمَ مسلماً والمسيحي مسيحياً؟! لو شاء ربُّك، لجعلها أمَّةً واحدةً، إذاً فلتكن مَشيئتُه.. فهو يرى الأفضلَ في كُلِّ الأحوالِ، ليس دِينٌ على خطأٍ، الخطأُ في المُتطرّفين.. مسلمين كانوا أو مسيحيين، مَن يسيئون للدينِ.. مُدَّعين أنهم حاموه.. غير عالمين أنهم بذلك يُشرِكون! فهم يجعلون ذَواتَهم الفقيرةَ مَحلَّ اللهِ عزوجل! يُكرِهون المسيحي على أن يبقى مسلماً.. وكذلك العكس! كيف لهم يبيحون أشياءً قد حرَّمها الله؟! كيف لنا طاعتهم فيما لا ينبغي طاعته؟! أهُم أفضلُ من الله؟! حاشا، ينبغي أن يُطاعَ اللهُ أكثرَ من الناسِ، إذاً.. فجَزاءُ المُتطرّفين من المسلمين والمسيحيين.. جُهنَّم وبِئسَ المصير، لإسائتِهم لدِينِهم، وشِركِهم بالله، وإيمانِهم بذَواتِهم، ما تفسيرُك لذلك الحُلمِ يا صاحب؟

صمت صديقي هُنيهةً مُتأمِّلاً فيما قُلتُه.. ثم قال: أرى أنه ليس حُلماً.. بل الحقيقةَ بالفِعل، وأذكرُ مقولةً لفَضيلةِ الشيخ " محمد متولي الشعراوي "، "إن بحثنا فيما نشتركُ فيه.. لما وجدنا ما نختلفُ عليه".

فقُلتُ مُستطرِداً لحديثِ صديقي: حقاً.. نحن نشتركُ في المَحبَّةِ والتسامحِ والأمانةِ والإخلاصِ.. إلى غيرِها من الصفاتِ الحسنة المَرضية أمامَ الله، والاختلافُ في مُجرَّدِ الشَرائع ليس إلا.

فتنفَّس صديقي الصَعداء ارتياحاً ثم قال: إنني أشعرُ بارتياحٍ بعض الشيء.

فقُلتُ في عَجَبٍ: لِمَ بعض الشيء؟!

فقال آسِفاً: إنني أشفقُ على اليهودِ مما يعتنقون!

فضحكتُ ساخراً.

فنظر لي صديقي متعجباً، ثم قال: إني لا أمزح.. فلِمَ ضحكتَ إذاً؟!

فقُلتُ آسِفاً: ستظلُّ مُعتقداتُنا كما هي! ومَن على غير دِينِنا.. بل مَن على غير مِلَّتِنا، كافرٌ يستحقُّ القتل! يَبدو لي ما حلمتُه، حقيقةً يصعبُ بل ويستحيلُ تحقيقُها!

تمَّت..

القصة الثالثة

"لن اغترب"

حالةٌ من الوجومِ تسودُ القصرَ.

حَزَمَ أمتعتَه بحقيبةٍ من الجلدِ مُتجِهاً خارجَ القصرِ.

عانقتُه طويلاً حتى انهالت دموعُنا من أعينِنا.

قال لي مُتأثِّراً: والدي.. أما زِلتَ تُصِرُّ على المُكوثِ في مصر؟!

فقُلتُ مُتحمِّساً: وسأظل.

- ألم تتعظ مما حدث وسيحدثُ لنا؟!

فقُلتُ واثقاً: إني على يَقينٍ أنني سأرى ابنتي المُختطَفة يوماً.

فقال لي ساخراً: إنك تحيا في عالمٍ من الأوهامِ.. يُصوِّرُ لك الوَهمَ حقيقةً والحقيقةَ وَهماً!

- ليست أوهاماً.. إنها أحلامٌ قريبة المَنالِ.

- دَعكَ من الأحلامِ وعِش في عالمِ الواقع.

- وكيف ترى الواقع؟

- أرى واقعَنا العربي مُهدَّداً بالزوالِ.. ولستُ بمُستعِد للزوالِ معه.

فقُلتُ له مُشفِقاً: أتخلَّيتَ عن عُروبتِك؟!

- بل هي التي تخلَّت عنِّي.. اغتربت إلى حيث لا رَجعة!

- واقعُنا لم ولن يغترب.

- حقاً.. إنه لم يغترب بعاداتٍ وتقاليد غربية.. بل بعاداتٍ وتقاليد شرقية.

فقُلتُ في عَجَبٍ: كيف؟!

- بما أنك شيخٌ عَجوزٌ أجبني، أكان من طَبعِنا يوماً الإساءةُ من قتلٍ واختطافٍ وتدميرٍ لمثلِنا من المصريين؟!

- مُطلقاً.

- إذاً فماذا حدث لواقعِنا العربي؟! ألم يغترب؟!

- إن ما يحدثُ من قتلٍ واختطافٍ وغيره ليس من قِبَلِ المصريين على مثلِهم! لم يكن بطبيعتِنا يوماً الإساءةُ لمثلِنا من المصريين! ولكن.. يجوزُ هناك فِئةٌ ضئيلةٌ بيننا تميلُ للطابعِ الغربي العُدواني.. ولكنهم ليسوا بمصريين عرب!

- حَمداً للهِ أننا لسنا منهم، ولكن، ماذا إن وقعنا بين أيديهم كما حدث بشقيقتي؟! بمَن نحتمي حينئذٍ؟!

- بالوطن.

- وماذا إن كان خائرَ القوى كما الآن؟!

- الحِمايةُ التي أعنيها الكَينونةُ وليس الإنقاذ، فإن قُتِلتَ في بَلدِكَ.. فأنت مَحمي، ولكن.. إن قُتِلتَ ببلادِ الغربِ كما أنت ذاهبٌ.. فأنت غَريبٌ عُريانٌ ليس لك كيانٌ.

- أفضِّلُ قَتلي بيَدِ الأغرابِ.. عَمّا أُقتَلُ بيَدِ أشقائي.

فقُلتُ له آسِفاً: إنني أشفقُ عليك مما تقوله يا بُني، ليس عربيٌّ بقاتلٍ لعربيٍّ مثله! ولكن.. افعل كما تشاء.

- لستُ كما أشاء، مثلما اغترب واقعُنا العربي.. سأغتربُ أنا أيضاً، لأنني عربيُّ الجُذورِ.

فصِحتُ في وجهِه مُنفعِلاً: إنك لستَ بحاجةٍ لتبريرِ خِيانتِكَ.

فقال لي آسِفاً في عَجَبٍ: أخائنٌ أنا؟!

- بل وأكثر من خائن، ألا تذهبُ لبلادِ الأغرابِ لتحتميَ بهم من أشقائك العرب؟! وليتك اكتفيتَ بذلك! أراك الآنَ تُغرّبُ واقعَك العربي مُتهِمه بالخِيانةِ العُظمى لتبريرِ خِيانتِكَ له!

- قُل كيفما تشاء، يَبدو لتفاوتِ الأجيالِ بيننا أننا مُتناقِضا الفِكرِ كالعادةِ! مُعتقِداً كُلٌّ مِنّا أنه على صَوابٍ!

- لِمَ لم يُفكِّر مَن حولك بمثلِ تفكيرِك هذا؟!

- بل كُل مَن حولي لديهم مثل تفكيري هذا.

- إنه ليس منطقياً! أخائنة مصرُ بأسرِها؟!

- على حَدِّ قولِكَ.. الخِيانةُ نوعان، نوعٌ يحتمي ببلادِ الغربِ، والآخرُ بل والأخطرُ، الاعتداءُ على مَن مثله في العُروبةِ، ولكن لا يجوزُ المقارنةُ بين هذا وذاك، فإن كان الأولُ مُرّاً.. فالثاني أضلُّ وأشرُّ.

فقُلتُ آسِفاً: إنني لا أصدِّقُ ما تزعمُ به، فكلاهما خِيانة.

- أعـذرُك والـدي، إنك تنتمي لجيلِ الانتماءِ الحقيقي للـوطن، ليـتَ جيلَك يعودُ يوماً!

- بل موجود بالفِعل يا بُني.

- ستثبتُ لك الأيامُ نَقيضَ ما تعتقدُ، وَداعاً والدي.

- لِمَ الوداع؟!

- كُنتُ أودُّ أن أقولَ لك إلى اللقاءِ.. ولكن، هذا ما لا أظنُّه.

- إنني أستبشرُ خيراً، إلى اللقاءِ يا بُني.

- إلى اللقاءِ يا والدي.

غادرني، هَجَرَني، أخذت عَيناي تدمعُ بالبُكاءِ، ليس على فُراقِ ولدي، إنما على هَجرِه لوطنِه باحثاً عن الأمانِ ببلادِ الأغرابِ! لم أكن أعتقدُ يوماً أن أنجبَ ابناً يتخلّى عن وطنِه في أولِ مِحنةٍ له! أليس مَن احتضنه طِيلةَ سِنِي حياتِه؟! أيُكافِئه بخِسَّةِ الاغترابِ والاحتماءِ ببلادِ الأغرابِ؟! لن

أغتربَ.. لا عن بَلدي.. بَلدتي.. بيتي.. فِراشي، إنني أبكي عليه دَماً.. وليس دُموعاً.

لم يُهوِّن عليَّ تلك الأيامِ الشقيةِ إلا أملي في رؤيةِ ابنتي التي أشتاقُ إليها بشِدَّةٍ، وأهلُ منطقتي.. مَلجأي ومَلجأهم، فأنا أكبرُهم سِنّاً، يستشيروني في كُلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ، لحِكمتي، وبَلاغتي في الحوارِ، وخِبرتي في الحياة.

وذاتَ يومٍ، كنت جالساً بشُرفةِ القصرِ.. أرتشفُ كوباً من الشاي الساخن، وما أن أومأتُ برأسي على سورِ الشُرفةِ، إذ بحُلمي يتحقَّقُ أمامي! ولكنه، كان أشبهُ بكابوسٍ! رأيتُ ابنتي.. في صُحبةِ عددٍ هائلٍ من الشبابِ.. حاملين مَشاعل من النيرانِ وأسلحةً بيضاء.. في مَدخلِ القصرِ! نهضتُ عن مقعدي، مُنزعِجاً لما أرى! ترتسمُ على ملامح وجهي السعادةُ المَشوبةُ بالقلقِ!

أخذت ابنتي تتحدَّثُ إليَّ بارتباكٍ قائلةً: اترك لهم القصرَ بما فيه.. وإلا سيذبحونني!

انهالت دُموعي من عَيناي دونَ دِرايةٍ.

فأرى ابنتي الآنَ بَعدَ طِيلةٍ من الزمانِ.. تتخلّى عن وطنِها ومأمنِها.. مُضحِّيةً به لأجل حياتِها! كما شقيقِها! ليتَني ما رأيتُها!

كيف لأولئك الشبابِ أن يقتحموا بيتي.. مُصِرّين على الاستيلاءِ عليه عُنوةً! إنني أعرفُهم جيداً، إنهم شبابُ المنطقة، ألم يأوِ هذا القصرُ أهلَهم وعائلاتِهم طِيلةً من الزمانِ؟! ألم يتناولوا فيه أفخرَ أنواعِ الطعامِ والشَرابِ؟! ألم يكن مَلجأهم يوماً وما زال؟!

إنني على يَقينٍ بعدمِ قُدرةِ أولئك الشبابِ على العَبَثِ بالقصرِ.. مأواهم وملجأهم.

قُلتُ لابنتي وعلى مَسمعٍ من أولئك الشبابِ: أنا وأنتِ.. بل والكُلُّ أيضاً.. جُزءٌ من هذا القصرِ، فكيفَ لي أن أقتصَّ الكُلَّ ليبقى الجُزءُ؟! لا حياةَ للجُزءِ إلا بالكُلِّ.

وفورَ قولي هذا، إذ بأحدِ الشبابِ يُمسِكُ بسِكّينٍ، يضعُها على رقبةِ ابنتي! ثم يذبحُها سريعاً!

فزعتُ من منظرِ الدمِ المُتناثِرِ في مَدخلِ القصرِ! ليس أولئك بمصريين! ليسوا بمصريين! كيف لهم يذبحون ابنةَ شخصٍ عاش لخِدمتِهم؟! تذكَّرتُ حَديثَ ولدي إليَّ قَبلَما يغتربُ، يَبدو لي الآنَ أنه على حَقٍّ، لا أرى انتماءً للوطنِ.. بل عَبَثَاً به! قد تبدَّلَ الانتماءُ بالعَبَثِ، والوَفاءُ بالخِيانةِ،

والأمانُ بالارهابِ! تَبدو لي الوطنيةُ.. شيئاً مَضى بلا رَجعةٍ.. أشبهُ بموضةٍ قديمة! اغتربت الوطنيةُ بطابعٍ غربي.. بادياً للعالمِ شرقي! لم يكن طَبعُنا ذلك يوماً!

رأيتُ مَشاعل النيرانِ تتطايرُ بداخلِ القصرِ! لم أتحرك البَتَّة، كُنتُ أنظرُ إلى الشبابِ مُدمِعاً في أسى.. مُشفِقاً على ما يفعلونه من عَبَثٍ بالوطنِ.. ساهين غير داركين نتيجةَ ذلك العَبَثِ! إنني أخشى الآنَ على الوطنِ مما كُنتُ لا أخشى منه يوماً! أخشى عليه من أبنائه وأهلِه.. بَعدَما كُنتُ أخشى عليه من الغريبِ! أصبح أهلُه الآنَ أكثرَ عُدوانيةً من الغريبِ! لِمَ؟! كيفَ؟! لا أعلمُ، أخشى على الوطنِ ألا يصبح وطناً يوماً ما! مصرُ وطنٌ ينقسمُ على ذاتِه! وطنٌ يغتربُ ولا يغتربُ! يغتربُ بأبنائي إيجابياً، وبأولئك الشبابِ العابثين سَلبياً! ولكن.. كلاهما اغترابٌ، ولا يغتربُ بأمثالي، ولكن، مَن يسودُ؟

أشحتُ ببصري في أرجاءِ القصرِ، وإذ بالنيرانِ تلتهمُ جميعَ ما به، التفَّ الدُخّانُ حولي، أختنق، أختنق، أختنق، مُلفِظاً أنفاسي الأخيرة، لن أغترب.. لن أغترب، وفجأةً، رأيتُني جالساً بشُرفةِ القصرِ.. وأمامي كوبُ

الشاي بارداً، نظرتُ حولي، فإذ بسُكونٍ تام يعمُّ أرجاءَ القصرِ، نهضتُ عن مقعدي سريعاً، تجوَّلتُ بأرجاءِ القصرِ سعيداً، ملأتُ السُكونَ ضجيجاً، صِحتُ بسعادةٍ غامرة، لن أغترب.. لن أغترب، مصرُ وطنٌ لن يغترب.

تمَّت..

القصة الرابعة

"مارلين"

أتريدُ أن تعرفَ ما هو الحُب؟ إذاً فتابع معي.

"مارلين"، حُبٌّ بدأ منذ طُفولتي، تفاقم مع الأيامِ عِشقاً، إلى أن صار عُبوديةً.

لا أعلمُ، كيف أحببتُها؟! متى أحببتُها؟! لماذا أحببتُها؟!

ولكنني أعلمُ جيداً، أنني أحببتُها، ومن صَميمِ الوجدان.

بَشرتُها ناصعةُ البَياضِ كالشمسِ! كُلما حاولتُ تدقيقَ النظرِ إليها، أحرقتني بلمعانِها! فكُنتُ أكتفي بنظرةٍ عابرةٍ.. تفيضُ عليَّ لمعاناً يدومُ أياماً وشُهوراً!

عَيناها بُنِّيتان واسعتان، أشبهُ بكأسين من الخمرِ! يُسكِراني كُلما أتجرَّعُ من النظرِ إليهما!

شَعرُها ناعمٌ، أسود من الليلِ! ينسابُ على ظهرِها كالخيلِ!

ابتسامتُها رقيقةٌ لأبعدِ مَدى! فعندما تبتسمُ، إذ بغَمّازتين تنطبعان على خَدَّيها.. تفيضا عليهما رَونقاً، بل وخِفَّةَ ظِلٍّ مما هي عليه! وإن جاز القولُ، ابتسامةً تشفي العَليل.

كُنّا نتبادلا الزياراتِ مُنذ الطُفولةِ، فهي ليست حبيبتي فحسب.. بل ابنة خالتي أيضاً، مما يَسَّر عليَّ الأمرَ كثيراً، فكُنتُ أزورُها بصفةٍ يومية في منزلها، وكذلك هي، نلعبُ، نتحاججُ سوياً، ننفردُ ببعضِنا البعض بعيداً عن الجو الأسري، إلى أن توثَّقت المودَّةُ بيننا، وما أدراك بحُبِّ الطُفولةِ البريء من أي غرضٍ دنيء، حُبٌّ لا تُشوّهُه شَهواتٌ أو مَصالح، حُبٌّ لأجل الحُب.

كبرنا سوياً، التحقنا بالجامعة، وحان الوقتُ لمُصارحتِها بحُبي لها ولأولِ مرَّةٍ.

صارحتُها، بادلتني مشاعر رقيقة، ولكنها، لم تُصارِحني بحُبها مثلما صارحتُها! رُبما، مثلها مثل أي فتاةٍ شرقية، تحلمُ بالزواجِ بمَن تُحِب، مُنتظِرةً عرضَ ذلك الأمرِ عليها.

ولكنني، لم أفصح لها عن ذلك الأمرِ مُطلقاً، فأخذت تُداعِبُني بشكلٍ لا يخدشُ الحَياءَ، كُنتُ أعشقُ مُداعبتَها لي.. حَديثَها إليَّ، وعلى يَقينٍ تام، أنها على أحرِّ الانتظارِ.. أن أطلبَ يديها، ولكنني، آثرتُ الصمتَ.

مَرَّ عامٌ مُنذ مُصارحتي لها، تبادلنا خلاله الزياراتِ والكلامَ المَعسول، ولكنني، لم أفصح لها أيضاً عن أمرِ الزواجِ بها.. على الرغم من مُحاولاتِها الجاهدةِ في أن أخبرَها عن كيفيةِ شكلِ علاقتِنا فيما بَعد.

وذاتَ يومٍ، فاتحتني مُتساءلةً عن رأيي بالزواج، فأوضحتُ لها: الحُبُّ شيءٌ.. والزواجُ شيءٌ آخر، لولا الحُبُّ ما خُلِقنا، ولولا الزواجُ ما وُجِدنا، فكلاهما وجهان مختلفان لعُملةٍ واحدة، لن أتزوجَها يوماً، خِشيةً على حُبي لها.

حيث أنني أعتنقُ هذا المبدأ، ما دُمتُ أحببتُها.. فلن أتزوجَها، فقط.. الزواجُ بمَن لا أحب.

فعندما أتزوَّجُ بمَن أحب، يصبحُ مِلكاً لي، فتخمدُ نارُ الحُبِّ ولوعتُه، وتتبلَّدُ مشاعري الجَيّاشة إليه، فيضيعُ الحُبُّ، ولن يكونَ زواجاً ناجحاً، فأفقدُ الحُبَّ والزواجَ معاً.

ولكن، عندما أتزوَّجُ بمَن لا أحبُّ، سأنجبُ منها، مُكوّناً أسرةً وعائلةً، وفي ذاتِ الوقتِ، سأكونُ سعيداً.

كيف؟! حِينئذٍ سأفوزُ بالحبيبةِ والزوجةِ معاً، فأحيا معهما سوياً، مع حبيبتي في خيالي وأحلامي، ومع زوجتي في حاضري وواقعي، أحقِّقُ في أحلامي ما لا أحقِّقُه في واقعي، وكذلك العكس.

فكان وَقعُ هذا الحديثِ عليها بمَثابةِ صَدمةٍ غير مُتوقَّعةٍ.

فأخبرتني في شيءٍ من الغَيظِ، كاظمةً إيّاه.. ولكنني أدركُه جيداً.. أنني مُجرَّدُ أخ بالنسبةِ لها، ولم تُبادِلني الحُبَّ يوماً، وأنني موهومٌ بحُبِّها لي، واصفةً مبدأي بشيءٍ من الحَماقةِ.

ولكنني، رأيتُ أثناءَ حديثِها إليَّ بُكاءَها قَبلَما تذرفُه دُموعاً.

ثم غادرتني بلا سَلامٍ لأولِ مَرَّةٍ!

وقفتُ مُتأثِّراً عَقِبَ مُغادرتِها لي، وكأن الدُنيا غادرتني.. بل وغاضبةٌ عليَّ! فأخذت تجرفُ مَدامعي دُموعي المُرَّة خارجاً! ظللتُ أبكي حتى صار احمرارٌ شديدٌ في عيناي!

ولكن، لماذا أبكي؟! هل أخطأتُ؟! بالطبع لا، كان ولا بُدَّ أن تعلمَ بحقيقةِ ذلك الأمرِ عاجلاً أم آجلاً، إذاً.. فلماذا أبكي؟! رُبما أبكي لأنها قالت لي أنني مُجرَّدُ أخ بالنسبةِ لها، وأنني موهومٌ بحُبِّها لي! بالطبع لا، إنني أحببتُها عُمراً وليس يوماً، وأعلمُ جيداً أنها لم تَقُل ذلك إلا بَعدَ صَدمتِها في حديثي إليها، إذاً.. فماذا بَعد؟هل يمكنُني زيارتُها بَعدَ ما حدث بيننا؟! هل يمكنُني التحدثُ إليها بطلاقةٍ كما كان قبلاً؟! هل يمكنُني مُداعبتُها التي أشتاقُ إليها فيما بَعد؟! بالطبع لا، إذاً فحديثي إليها أزالَ كُلَّ علاقاتِ المودَّةِ بيننا، هذا هو ما جعلني لم أفصح عن أمرِ الزواجِ أمامَها عِدَّةَ مَرّاتٍ على الرغمِ من مُداعبتِها الحَميمةِ لي.

وبالفِعلِ انقطعت الزياراتُ بيننا، وانقطعت العلاقاتُ بين الأسرتين.

تقدَّمَ أحدُ الشبابِ الموقَّرين لطلب يدي "مارلين"، فقَبِلت الزواجَ منه على الفورِ، على الرغم من أنها لا تعرفُه جيداً! وعلى يقينٍ تام أنها لا تُحِبُّه، وعلى الرغم من ذلك.. تزوَّجته.. للانتقامِ من حُبِّها لي! ولم تكن تعلمُ أن الحُبَّ هو الشيءُ الوحيدُ الذي يستحيلُ الانتقامُ منه مَهما بلغ المرءُ من جَبروتٍ!

أثار هذا الخبرُ شُعوراً بَغيضاً بداخلي! لا أعلمُ لماذا! رُبما لأنني لم أعُد أرَها فيما بَعد، خاصةً بَعدَما أصبحت مِلكاً لغَيري.

أصابتني وَحشةٌ جارفةٌ إليها.. ولكن سُرعانُ ما تغلَّبتُ عليها.

تزوَّجتُ بإحدى الفتياتِ الحَسناواتِ، أحبَّتني بشِدَّةٍ.. على الرغم من أنني لم أحبها قَط، ولم أبادلها الحُب! ولكنها، كانت سعيدةً جداً.. راضيةً بذلك، مُعتقِدةً تمامَ الاعتقادِ بأن أصدقَ حُبٍّ، حُب من طرفٍ واحد.

تعايشنا أنا وزوجتي معاً في سعادةٍ غامرةٍ.. سعيدٌ معها كزوجةٍ تُحِبُّني لا أحبُّها، وسعيدةً معي كزوجٍ تُحِبُّه لا يُبادِلُها حُبَّه.

إننا نعتقدُ أنه ليس هناك اثنان على وجهِ الأرضِ سُعداء مثلنا، كيف؟! السعادةُ لدينا تتمثَّلُ في اللوعةِ والاشتياق، وليس النَيل والامتلاك، فزوجتي تحلمُ بسَماعِ كلمةٍ لطيفةٍ رقيقةٍ مِنّي، ولكنني، لم أنوّلها إيّاها، أعاملُها بجَفاءٍ، لإسعادِها، لا لإحباطِها!

كذلك حبيبتي التى لم أرَها مُنذ سنواتٍ طالَ عددُها، أشتاقُ إلى أن أرَها ولو فى حُلمٍ من أحلامي على أن أرَها أمامَ عيني، فلَذَّةُ أحلامِ المَنامِ تفوقُ أحلامَ الواقعِ بأضعافٍ!

حَيَيتُ أجملَ سِني عُمري مع "مارلين" في أحلامي وزوجتي في واقعي.

كانت زوجتي تضعُ أمامي الكَرّاسَ والقلمَ لأكتبَ في "مارلين" أناشيد غزلية، بل وتُساعِدُني في كتابتِها!

نعم.. ونِعمَ الزوجة! لم ولن أجد زوجةً وَفيةً مُخلِصةً كزوجتي هذه! إنها تُحِبُّني بكُلِّ إخلاصٍ، شاعرةً بكُلِّ حبيبٍ مُشتاقٍ.

كانت تُساعِدُني في كتابةِ الأناشيد الغزلية.. كما لو أنها تكتبُها إليَّ في لَهفةٍ وشَوقٍ!

حينئذ أدركتُ أن زوجتي هي نِصفي الثاني الذي لا يمكنُني الاستغناءُ عنه، فعلى الرغم من عدم حُبّي لها، إلا أننا كُنّا متفقين دائماً! لم أذكر أننا اختلفنا يوماً، أحببتُ مَن اختلفَ معي.. وأبغضتُ مَن اتفق معي! استغنيتُ عَمَّن أحببتُه.. ولم أستطع الاستغناءَ عَمَّن لا أحبُّه! هذا هو الكمالُ العاطفي.

وذاتَ يومٍ، شعرتُ بوَحشةٍ جارفةٍ إلى حبيبتي "مارلين"، كُنتُ أرى زوجتي في صورةِ وهَيئةِ حبيبتي! بل وكُنتُ أناديها بـ"مارلين"! لأتوسَّمَ فيها ولو شيئاً منها.. حتى ولو اسمها فقط!

لكن، وعلى غيرِ ما توقَّعتُ، غيَّرت زوجتي اسمَها إلى اسمِ حبيبتي "مارلين"، مُضحِّيةً باسمِها! كان كُلُّ هَمِّها إسعادي بأيَّةِ وسيلةٍ.. دونَ أن تنتظرَ شيئاً في المُقابلِ!

أُصِبتُ بمرضٍ بفِعلِ تلك الوَحشةِ الجارفةِ التي تغلغلت بداخلي.. حتى فاضت بخارجي أيضاً، فكُنتُ أرى كُلَّ شخصٍ، بل كُلَّ شيءٍ حولي، "مارلين"! مما دفع زوجتي إلى أن تأتيَ إليَّ بحبيبتي.. "مارلين"!

رأيتُها، بَعدَ طِيلةٍ من السنواتِ، حَقّاً رأيتُها، ولكنني، لم أعرفها للوَهلةِ الأولى، رأيتُها، وليتني ما رأيتُها!

بَشرتُها التي كانت ناصعةً كالشمسِ، أصبحت سَمراء كالليلِ تشوبُها تجاعيد السِنّ!

عَيناها البُنِّيتان الواسعتان، لم أعُد أرَهما من النظّارةِ الطِبّيةِ سَميكة العَدَساتِ، التي كانت ترتديها لضَعفِ بَصرِها!

شَعرُها الطويلُ المُنسابُ، أصبح قصيراً كشَعرِ الرجالِ!

ابتسامتُها التي كانت تشفي العليلَ، زادتني عِلَّةً على عِلَّتِي!

ماذا حدث لها طِيلةَ الأعوامِ الماضيةِ؟!

أخبرتني أن زوجَها توفي بَعدَ عامٍ من زواجِهما.. رافضةً الزواجَ من آخرٍ.. لتحيا مع خَيالاتِها وأحلامِها معي دونَ أيَّةِ قُيودٍ شَرعيةٍ.. مُقرِّرةً أن تهملَ في نَفسِها وجَمالِها على قدرِ استطاعتِها.. مُعتقِدةً أنها بذلك تُسقِطُ نَفسَها في نظري صورةَ الحبيبة! وبالتالي أتزوَّجُها كما صوَّرتُ لها من قبل! وكانت على يَقينٍ أنها ستراني يوماً، لتحقيقِ رغبتِها الدفينةِ طِيلةَ السنين الماضية، فإحساسُ الحبيبِ لا يَخيب.

ندمتُ حِينئذٍ أشدَّ النَدَم، اكتشفتُ أن مَن أحبُّه، ما هو إلا شخص أناني! والحُبُّ لا يعرفُ الأنانية!

فقد أهملت "مارلين" في نَفسِها وجَمالِها! لا لإسعادي بالصورةِ التي أحببتُها عليها، ولكن، لإسعادِ نَفسِها بالزواجِ مِنّي! عَلاوةً على عدم مُبالاتِها لمشاعر "مارلين" زوجتي، حيث أنها عرضت عليَّ الزواجَ أمامَها!

على الرغم من عِظَمِ حُبّي لها إلا أنها لم تفهمني يوماً! لا يمكنُ لي أن أتزوَّجَ فتاةً أحببتُها يوماً! فلجَهلِها أهدرت أجملَ سِنِي عُمرِها لأجل أوهامٍ تحيا عليها! بل وأصبحت الخاسرة الوحيدة!

خَسِرَت حُبّي لها! خَسِرَت سِنِي عُمرِها! خَسِرَت جَمالَها!

ولأن حُبَّها يحوي قدراً كبيراً من الأنانيةِ.. خابَ إحساسُها في أن أتزوَّجَها، فأنا أحيا فقط مع مَن يعرفُ الحُبَّ.. لا مَن يجهلُه.

رُبما لإنصافِ القَدَرِ، خَسِرَت "مارلين" حُبّي لها.. بل وكُلَّ شيءٍ.. لأنانيتِها المُفرِطةِ!

أما أنا.. فخَسِرتُ حبيبتي، ولكنني.. فُزتُ بزوجةٍ تُحِبُّني، لأنني أحببتُ بإخلاصٍ.

كُنتُ قبلاً أحيا حياتين.. وليس حياةً واحدةً! كُنتُ أعاملُ حبيبتي.. كحبيبةٍ وليست كزوجةٍ، وأعاملُ زوجتي.. كزوجةٍ وليست كحبيبةٍ، ومنها كان التوازنُ بينهما.. دونَ تَحامُلٍ على طرفٍ دونَ الآخرِ.

ولكنني الآنَ، بَعدَما أصابَ الشرخُ صورةَ حبيبتي السابقة، مادياً شكلياً ومعنوياً خُلقياً لم أعُد أفكرُ في شخصٍ آخرٍ سِوى زوجتي "مارلين"، تلك الزوجةُ التي أحبَّتني بكُلِّ وَفاءٍ وإخلاصٍ.

فحَظِيت زوجتي "مارلين" على حُبّي لها من ناحيةٍ، وحياتي معها كزوجٍ من ناحيةٍ أخرى، تلك الوحيدةُ التى أحبَّت بصدقٍ خالصٍ من الأنانيةِ.

لا تلُمني إن قُلتُ، لم أعرف الحُبَّ إلا مع مَن لا أحب!

تمَّت..

القصة الخامسة

"قانون غاب"

في ساحةِ المحكمةِ، بداخلِ قفصِ الاتهامِ.. يقفُ ثلاثةُ أشخاصٍ في مُختلفِ الأعمارِ، صبيٌّ لا يتجاوزُ الثالثةَ عشر من عُمرِه، وشابٌّ فى مُقتبَلِ الأربعين من العُمرِ، وشيخٌ يتجاوزُ الستين من العُمرِ.. ينهمرون في البُكاءِ.

يقفُ "وكيل النيابة" على المنصَّةِ ليُدلي بما لديه من أدلةٍ: سيدي القاضي.. إننا اليومَ بصددِ قضايا يُجرِّمُها القانونُ شكلاً وموضوعاً، لا تأسرُك دموعُهم هذه.. فتلك مُجرَّدُ تمثيليةٍ دنيئةٍ من أناسٍ يُهدِّدون المجتمعَ العربي بأسرِه.

فذلك الصبيُّ السَفّاح، والذي قتل من مَدَّ له يَدَ العَونِ! خالَه الذي تولّى تربيتَه وتعليمَه بَعدَما تيتَّمَ، ضامَّه لحِضنه كما أبنائه، والذي لم يلقَ فى المُقابلِ إلا شرَّ هذا الصبيِّ المُتغلغل به! لا يخدعُك صِغرُ سِنِّه سيدي القاضي، فهنالُك الكثيرُ مِمَّن يصغرُ سِنُّهم ويستفحلُ شَرُّهم!

أما الشابُّ النجس.. الزاني.. المُغتصِبُ الآدمية! ماذا لو كانت لديه شقيقةٌ سيدي القاضي؟! أيريدُ أن يُفعَلَ بها كما فعل هو أيضاً بالأخرياتِ؟! ألا يستحي من ارتكابِ ذلك الأمرِ المُشينِ؟! إنني أأسفُ أشدَّ الأسفِ على أولئك الشبابِ! أيغتصبون حُقوقَ الوطنِ لإذلالِه بدلاً من حِمايتِه لينهضوا به!

أما ذلك الشيخُ السارقُ، والذي اختلس مَن عمل لديه طِيلةَ عُمرِه! ألا يستحي من ارتكابِ ذلك الأمرِ ولو لأجلِ سِنّه! أيصبحُ ذلك الشيخُ لِصّاً سارقاً.. بدلاً من أن يكونَ شيخاً وَقوراً!

إنني أطالبُ بتوقيعِ أقصى العُقوبةِ على المتهمين سيدي القاضي، أطالبُ بالقَصاصِ العادلِ لمَن اقتصّوا بحَقِّ الوطنِ بكُلِّ جَسارةٍ ووَقاحةٍ! ليكونوا عِبرةً لمَن يعتبرُ، وشُكراً سيدي القاضي.

أقفُ في ساحةِ المحكمةِ.. لأدلي بمُرافعتي عن أولئك المُتهمين: سيدي القاضي.. نحن اليومَ بصددِ أشنعِ الجرائم التى تُرتكَبُ بمجتمعِنا العربي.. جرائم يُجرّمُها اللهُ والقانون، القتل.. الاغتصاب.. الاختلاس، ولكن، إن تأمَّلت سيدي القاضي.. ما الدافعُ وراءَ تلك الجرائم البشعة؟ إن الصبيَّ الذى قتل خالَه بالسُمِّ.. لم يقتل خالَه بقدر ما قتل الذُلَّ الذي حَياهُ

طِيلةً من السنواتِ، فقد جَرَّعَ خالَه مَرارَ السُمِّ الذي تجرَّعَه منه طِيلةَ حياتِه بينهم، فخالُه الذي احتضنه، حَسبما ذكرت النيابة. ماذا يعني الاحتضانُ سيدي القاضي؟ الاحتواء أم الرفض والذُل؟! في الحالةِ التي بين أيدينا اليومَ يَبدو رفضاً وذُلاً! فعندما كان يجلسُ هذا الصبيُّ بين خالِه وأبنائه ليتفاعلَ معهم.. لم يكن مسموحاً له إلا أن يجلسَ على أرضيةِ الغُرفةِ باعتبارِه خادم لديهم ليس أكثر من ذلك! عَلاوةً على مُقاطعتِهم لمشاركاته وتفاعله في الحوارِ معهم! ناهيكَ عن نظرتِهم الدونيةِ له! خالُه الذي عَلَّمه، حَسبما ذكرت النيابة. ماذا يعني العَلامُ سيدي القاضي؟ الثقافة أم الجَهل؟! في الحالةِ التي بين أيدينا اليومَ يَبدو جَهلاً! إن هذا الصبيَّ لم يكف لحظةً عن تلبيةِ احتياجاتِ المنزلِ بأكملِها.. عَلاوةً على قِيامِه بتنظيفِ المنزلِ بمُفردِه يومياً.. لأجل لُقمةِ العَيشِ بينهم! وليتها كانت بينهم! إنه لم يجسر أن يجلسَ على مائدةِ السُفرةِ ليتناولَ الطعامَ بينهم! فقد كان لا يتناولُ إلا الفُتات المُتبقّي من مائدةِ أربابِه إن جازَ القولُ! وما أدراك بمَدى الذُلِّ المُنصَب على صبيٍّ فى مثل سِنِّه من خُشونةٍ مُفرِطةٍ في التعاملِ سيدي القاضي! كيف لذلك الصبيِّ أن يتحمَّلَ مثل هذا الذُلِّ مُنذ طُفولتِه وحتى صِباه.. عاجزاً عن أن ينبسَ بكلمةٍ! أتنفتحُ عَيناهُ على الذُلِّ والحِرمانِ بدلاً من الاحتواءِ والحَنانِ؟! مَن مِنّا يتحمَّلُ

ذلك؟! أتحيا فى ذُلٍّ سيدي القاضي أم تقتلُ الذُلَّ لتحيا؟! هذا ما فعله الصبيُّ.

أما الشابُّ المُتهمُ بالاغتصابِ.. ارتكب تلك الجريمةَ بالفِعل، ولكن، الشابُّ المُغتصِبُ الآدمية.. حَسبما ذكرت النيابة.. ماذا تعني الآدميةُ سيدي القاضي؟ الحياةُ كآدمي.. أم كغيرِ آدمي؟! في الحالةِ التي بين أيدينا اليومَ.. تَبدو الحياةُ مَسلوبة، بل ومُنتهَكة الآدمية! أسألت النيابةُ نفسَها.. لِمَ ارتكب هذا الشابُّ مثل ذلك الأمرِ المُشينِ الذي تستحي منه، وتأسفُ عليه أشدَّ الأسفِ حَسبما ذكرت؟ إن هذا الشابَّ سيدي القاضي في سِنِّ الأربعين من العُمرِ، لم يستطع الزواجَ لفَقرِه المُدقِع، قد كان من الممكنِ له أن يصطحبَ بفتاةٍ ليلية ليفعلَ ما يشاءُ فِعلَه في الخَفاءِ.. ولكنه لم يستطع ذلك أيضاً لعَجزِه عن دفعِ مُقابِلٍ مادي لتلك الفتاةِ، وبالتالي لم يكن أمامَه إلا الاغتصاب، مُخاطِراً بنفسِه مُرتكِباً أشنعَ الجرائم لإشباعِ غَريزتِه الجنسيةِ المكبوتةِ! إنني لا أبرّرُه من فِعلتِه المُشينةِ هذه، خِشيةً على نسائنا وبناتِنا، ولكنني أبرّرُه بحُكمِ ظُروفِه القاسيةِ، فهو لم يغتصب آدميةً بقدرِ ما اُغتصِبَ هو أيضاً من آدميةٍ! فكُلُّ ما كان يرغبُه الشابُّ الزواجَ لإشباعِ غَريزتِه، وهذا ليس عَيباً، فالغريزةُ فِطريةٌ تكمنُ بكُلِّ مِنّا، يصعبُ بل ويستحيلُ التغلُّبُ عليها، فما فعله الشابُّ لم يكن اغتصاباً

بقدر ما هو رغبة مُلِحّة في الزواجِ، أمِن آدميتِنا إذاً أن نحرمَ آدمياً من أقلِّ حُقوقِه كآدمي؟! هذا ما فعله الشابُّ.

أما الشيخُ المُتهمُ بالاختلاسِ.. ارتكب تلك الجريمةَ بالفِعل، ولكن كيف كان تاريخُ ذلك الشيخِ؟ ألم يكن حَسَنَ السُمعةِ طِيلةَ فترةِ عمله مع مَن عمل لديه؟! ولكن كيف له أن يختلسَ مَن عمل لديه طِيلةَ هذه المُدَّةِ؟! إنه لم يختلس إلا بَعدَما تقاعد عن عمله مُضطرّاً من قِبل صاحبِ العمل.. بحُكمِ سِنِّه والذي تجاوز السِتين من العُمرِ، كيف له أن يقتاتَ لينفقَ على بيتِه وزوجتِه؟! أيتسوَّلُ في شَيبتِه؟! لم يكن أمامَه إلا الاختلاس بقدر الممكن لتدبيرِ مَعيشتِه هو وزوجته دونَ الحاجةِ للآخرين، فقد كان المبلغُ الذي يتقاضاهُ أثناءَ فترةِ عمله.. لا يكفي بالمرَّةِ احتياجاتِ الأسرةِ! وبالتالي لم يكن لديهم ما يُدبّرونه أو يدَّخرونه لإعانتِهم مُستقبَلاً، وقد كان على ذلك راضياً شاكراً! لم يفكِّر يوماً بالاختلاسِ.. إلا بَعدَما فَقَدَ تلك الإعانةَ الضئيلة، فما فعله الشيخُ ليس هو اختلاساً بقدر ما هو حاجة مُلِحَّة للمالِ، ما الجُرمُ الذي ارتكبه ذلك الشيخُ المُسِنُّ؟! هل جُرمُه هو الحِفاظُ على أسرتِه من الفَناءِ والموتِ جوعاً؟! هذا ما فعله الشيخُ.

تأمَّل معي لحظةً سيدي القاضي، لِمَ ارتكابُ الجرائم حتى يومَنا هذا؟! لا تَقُل لي أن هذه طبيعةُ الحياةِ! وحيثُما يوجدُ الخيرُ يوجدُ الشَرُّ في المُقابِلِ

أيضاً! على النقيضِ من ذلك سيدي القاضي، فالجريمةُ مُنذ قديمِ الأزلِ وحتى يومَنا هذا لسببٍ واحدٍ فقط لا غير، أننا نحكمُ على الضحيةِ، تاركين الجاني يطيحُ بها وبنا كما يشاءُ! لا تعجبُ من كلامي هذا سيدي القاضي، إنني أرى أولئك المُتهمين ضَحايا أبرياء، على الرغم من أدلةِ إدانتِهم! ليس لأنني مُحامي الدفاعِ عنهم، ولكنها الرؤيةُ الحقيقيةُ والتي كثيراً ما نتغاضى عنها.

صَدَقَ مَن قالَ: لو كان الفقرُ رجلاً، لقتلتُه، إن السببَ الرئيسي الذي يكمنُ خلفَ تلك القضايا التي بين أيدينا اليومَ والذي يَبدو غائباً عَنّا، الفقرُ فقط لا غير.

فلولا حاجةُ الصبيّ لخالِه، ما اضطرَّ إلى الحياةِ معه وبين أبنائه الشَرِسين.. وبالتالي ما قتله، أليس من حَقِّه الانتقامُ من الذُلِّ بَعدَ مُعاناةٍ دامت عِدَّةَ سنواتٍ؟! هذا ما هو إلا غضبُ الحَليمِ لصبيٍّ يَتيم!

لولا فقرُ الشابِّ ما اغتصب حَقَّ غيرِه، فهو لم يغتصب إلا حَقَّه إن جازَ القولُ، حيث أنه اكتسب حَقّاً ليس بحَقِّه.. باعتبارِه أقل حُقوقِه الآدميةِ، أليس من حَقِّه الزواجُ؟! أليس من حَقِّه التمتُّعُ ولو بأقلِّ حُقوقِه الآدميةِ مثله مثل مَن حوله؟! هذا ما هو إلا رغبةٌ جارفةٌ لأعزب في الأربعين!

لـولا حاجـةُ الشـيخِ مـا اخـتلس حَقَّ غيرِه، ألـيس مـن حَقِّـه الحُصـولُ على بِضـعةٍ مـن آلافِ الجُنيهـاتِ كمُكافـأةٍ لنهايـةِ خِدمـةِ عملـه لـدى صـاحبِ العمل؟! إنـه لـم يخـتلس مُحتاجاً، بـل ثرياً.. لـيس بحاجـةٍ لبِضـعةِ الآلافِ التي تـمَّ اختلاسُـها، إنـه لـم يخـتلس أيضـاً إلا ليحـافظَ على حياتِـه وحيـاةِ زوجتِـه وخاصـةً بَعـدَما فَقَـدَ إعانتَـه الشَـهرية، هـذا مـا هـو إلا حاجـةٌ مُلِحَّـةٌ لعَجوزٍ مسكين!

واليـومَ تريـدون كالمُعتـادِ الحُكـمَ على الحَـقِّ! تـاركين الباطـلَ يسـتفحلُ أكثر وأكثر! ومن ثَمَّ يسـتحيلُ القضاءُ عليه! لِمَ ننظرُ إلى الجريمةِ بعَينِها سيدي القاضي؟! لا بُـدَّ أن هنـاك دافعـاً قويـاً وراءَ ارتكـابِ تلـك الجـرائم البشـعة كمـا أوضحتُ سـلفاً والتي لا بُـدَّ مـن مُعالجتِهـا بأسـرعِ وقـتٍ، يؤسـفُني أن أخبرَك سيدي القاضي أننا نُعاقِبُ الجريمةَ دونَ المُجرِمِ! سيدي القاضي.. لا ألـتمسُ منـك مـا تعجـزُ عـن فِعلِـه، إنني أطالـبُ بإضـافةِ مـادَّةٍ قانونيـةٍ للدُسـتورِ الجِنـائي، قـانون ع ن، قـانون الأعمـالِ بالنِيّـات، قـانون يحكـمُ للمظلومين، قانون يُميِّزُ بين المُجرِمِ والمُجرِمِ.. المُجرِمُ الذي يرتكبُ الجريمةَ عـن عَمـدٍ، والمُجـرِمُ الـذي يرتكبُهـا دونَ قَصـدٍ، قـانون ينظـرُ إلى مـا وَراءَ ارتكـابِ الجريمـةِ، قـانون يُحـاكِمُ الجريمـةَ ولـيس مُرتكِبَهـا، قـانون يحكـمُ الجريمـةَ، ويَحِـدُّ منهـا حتى يقضـيَ عليهـا تمامـاً، قـانون يُسـمِّي الجريمـة

باسمِها الفِعلي وليس الظاهري، والجريمةُ الفِعليةُ في قضيتِنا هذه هي الفقرُ وليس القتل أو الاغتصاب أو الاختلاس، فلا بُدَّ من تجريمِ الفقرِ، والقضاءِ عليه حتى نتجنَّبَ عَواقبه الوَخيمة كتلك التي تحدَّثنا عنها في قضيتِنا اليومَ، إننا بحاجةٍ مُلِحَّةٍ لمثل هذا القانونِ في يومِنا هذا، حِينئذٍ نحكمُ في القضيةِ بشكلٍ عادلٍ.. يُعاقِبُ الظالمَ بحَقٍّ ويُنصِفُ المظلوم.. ولا نضطرُّ إلى الزَجّ بالأبرياءِ بين المجرمين، أجزمُ لك سيدي القاضي.. أنه عند إضافةِ تلك المادَّةِ بالدُستورِ.. سنتفادى الكثيرَ والكثيرَ من الجرائم المُستفحلة بمجتمعِنا العربي.. بل وستضمحلُّ الجريمةُ تماماً، وشُكراً سيدي القاضي.

سُكونٌ تام يعمُّ المحكمة، الكُلُّ فى ترقُّبٍ للنطقِ بالحُكمِ، ينطقُ القاضي بَعدَ المُداولةِ، يُؤجَّلُ الحُكمُ في القضيةِ لحينِ عرضِ مادَّةِ قانون ع ن على البرلمانِ لدراستِها.

تمّت..

القصة السادسة

"مجنون كاميليا"

ماذا لو حلمتَ بالمستحيلِ؟! ماذا لو قرَّرتَ الحياةَ في زمنٍ مَضى عليه قُرابةَ قرنٍ من الزمانِ؟! ماذا لو عشقتَ سيدةً لها الآنَ في القبرِ أكثرَ من خمسةٍ وستين عاماً؟! إن كان هذا ضرباً من الجُنونِ، فأنا هو ذلك المجنون!

فأنا شابٌّ في الثلاثين من العُمرِ، لم أخُض مُطلقاً تجربةَ الحُبِّ أو الارتباطَ العاطفي بأيَّةِ فتاةٍ كمثل باقي الشبابِ، كان صديقي المُقرَّبُ يَدهَشُ كثيراً لأمري هذا.. ودائماً ما كان يسألُني، كيف أنني لم أحب أو أرتبط حتى الآنَ؟! كيف لم يتعلَّق قلبي بأيَّةِ فتاةٍ مَهما بلغت من جَمالٍ وجاذبيةٍ؟! ولكن دائماً ما كُنتُ أتهرَّبُ من الإجابةِ بشكلٍ أو بآخرٍ.. حتى لا أثيرُ السُخريةَ.

وذاتَ يومٍ أصرَّ صديقي على معرفةِ السبب، وتعهَّدَ لي أنه سيقبلُ إجابتي بصدرٍ رَحِب ودونَ أي تهكُّمٍ.

فأخبرتُه أنني مُرتبِطٌ بأجملِ فتياتِ الكون.. وأحبُّ فَتاتي هذه إلى حَدِّ العبادةِ.

فسألني صديقي في دَهشةٍ ولَهفةٍ قائلاً: مَن هي؟!

فأجبتُه في شَغَفٍ قائلاً: عندما تتحدَّثُ الطبيعةُ! عندما تتجسَّدُ الحياةُ بكُلِّ ألوانِها! عندما يصبحُ الجَمالُ مُثيراً للروحِ! عندما يهتزُّ للضحكةِ كُلُّ كيانٍ! عندما يطغي السِحرُ على الأنوثةِ! عندما يتفجَّرُ الدَلالُ من بين الجُفونِ! عندما يُغرِّدُ الطيرُ دونَ إيقاعٍ! عندما يصبحُ للإحساسِ مَعنى، وللسعادةِ لُغة! عندما تصبحُ الجاذبيةُ مُطلقةً وبلا حُدودٍ! فإنه وبلا شَك.. أتحدَّثُ عن فَراشتي الجميلة، كاميليا.

فقال صديقي في دَهشةٍ: كاميليا! مَن كاميليا؟! أصديقةٌ لك لا أعرفُها؟!

- بل تعرفُها جيداً، إنها بطلة فيلم "المليونير".. "قمر ١٤".. "شارع البهلوان".. "صاحبة الملاليم".. "آخر كِدبة".. وغيرها من الأفلام.

فنظر صديقي إليَّ في دَهشةٍ بالغةٍ، ثم قال: ما هذا الذي تقولُه؟! إن مُعظمَنا، إن لم يكن كُلُّنا، نعشقُ بَطَلاتِ الأفلامِ السينمائية، أفلام الأبيض والأسود وكذلك الألوان.. فهل هذا يعني أن أرتبطَ عاطفياً بجميعِ بَطَلاتِ الأفلام؟!

- إنني لم أرتبط مُطلقاً إلا بجميلتي هذه.. "كاميليا"، فمُنذ طُفولتي وأنا أشاهدُ أفلامَ الأبيض والأسود.. ولا سِيَّما أفلام أميرتي هذه، فأحببتُها وأنا صغيرٌ، وما زِلتُ أحبُّها وأنا شابٌّ، وسأظلُّ أحبُّها وأنا شَيخٌ.

فقال صديقي ساخراً: أليست هذه مَن تُوفِّيت في حادثِ طائرةٍ في مُنتصَفِ القرنِ الماضي؟ أذكرُ تقريباً أنها لم تتجاوز الثلاثين من العُمرِ إلا بِبِضعةِ أشهرٍ فقط لا غير.

- إنها حَقّاً لم تَعِش طويلاً، فهذه سِمةُ جَميلاتِ الكون.

فقال صديقي في دَهشةٍ بالغةٍ: فكيفَ أراكَ إذاً تتعلَّقُ بها كما لو أنها تحيا بيننا في زمنِنا هذا؟! وتتحدَّثُ كما لو أنك تراها عَياناً! تُحدِّثُك وتُحدِّثُها!

- ألم أقُل لك أنني مُرتبِطٌ بها؟! أمِن المَعقولِ لأي شخصٍ مُرتبِطٍ ألا يرى حبيبتَه أو يُحدِّثُها ولو مرَّةً في اليومِ؟!

فقال صديقي مُتعجِّباً: ولكن كيفَ لك ترتبطُ بسيدةٍ لم يَعُد لها وجودٌ في عالمِنا هذا؟! كيفَ لك تراها وتُحدِّثُها.. كيف؟!

- إنني أحلمُ بها يومياً.. أجلسُ معها.. أتحدَّثُ إليها.. أعرفُها جيداً كما لو لم يعرفها أحدٌ مثلي! لم يدمنها واقعي فحسب، بل حُلمي أيضاً! إنني أشتهي

النومَ لأرَها! فالليلةُ أنا على مَوعدٍ معها، سأراها.. سألتقي بها.. سأضمُّها إليَّ كما العاشقُ لعَشيقتِه.

فقال صديقي ساخراً: هه.. أتظنُّ أن تتركَ "كاميليا" حِضنَ الشناوي ورشدي أباظة رحمهما الله وتلجأُ إلى حِضنك؟!

- إنني بالفِعلِ أغارُ عليها مِمَّن لعبوا أمامَها دورَ الحُبِّ على الشاشةِ.. فإنني لا أراهُ تمثيلاً بقدر ما أراهُ حقيقةً بالفِعلِ.. فكيف لمَن يراها أن يَرَها ولو للوَهلةِ الأولى ولا يَذوبُ في عِشقِها كمَيِّتٍ مثلي! وفي ذاتِ الوقتِ.. لا أظنُّ مُطلقاً أنه يمكنُ لرجلٍ واحدٍ فقط أن يستحوذَ على ذلك القلبِ الصغيرِ الذي لها!

- أليس لديك مانعٌ إذاً أن تكونَ حبيبتُك هذه عَشيقةً لآخرين كثيرين؟!

- بالتأكيد.. فسيدةٌ لها من الجَمالِ والأنوثةِ ما يفوقُ جميعَ سيداتِ الكون، لا بُدَّ وأن تكونَ مِلكاً للجميع.

فقال صديقي مُندهِشاً: فأين عِشقُك إذاً؟!

- يزدادُ عِشقي لها، كُلما زاد عددُ عُشّاقِها.

- نظريـةٌ شـاذَّة! ولكـن هُنالـك الكثير والكثير من الجَميلاتِ الفاتنـاتِ من حولنا.. فلماذا كاميليا إذاً؟!

- كُلُّهُنَّ مُجرَّد صورة.. أما هي فـ"أيقونة"، كُلُّهُنَّ جَواري.. أما هي فـ"مَلِكة"، هي الحُبُّ.. وهُنَّ عَشيقات، حبيبتي.. كاملة الدَسَم.

- أتـدركُ جيـداً مـاذا تقـول؟! أتـدركُ جيـداً أن حُبَّـك العظـيمَ هـذا.. كـلا شيء؟! أتدركُ أن الحياةَ الحقيقيةَ هي ما تراهُ عُيونُنا، وما تسمعُه آذانُنا، وما تُحِسُّه قُلوبُنا؟! كيف ترى حياتَك إذاً؟!

- إنني أحـبُّ الحيـاةَ، ولكـن بوَجهِهـا البائـد، والأحـلامُ هي الحيـاةُ بوَجهِهـا البائد.

- وماذا تنتظرُ من مثلِ هذا الحُبِّ البائد؟!

- العاشقُ بحَقٍّ.. لا ينتظرُ من عِشقِه هذا شيئاً في المُقابِلِ.

- ليتَه عِشقٌ كما نعهدُه.. ولكنني أراهُ عِشقاً من نوعٍ شاذ! فأنت تحيا في مُثلَّثٍ من الوَهمِ! حُبٌّ وَهمي! عِشقٌ وَهمي! حَياةٌ وَهمية!

- إن كُنتَ تؤمنُ أن الحُبَّ يصنعُ المُعجزاتِ، فعليك أن تُصدِّقَ كُلَّ ما قُلتُه لك.

- وهل تحوَّلت أحلامُك إذاً إلى حقيقةٍ مَلموسةٍ حتى أؤمنَ بالمُعجزةِ؟!

- المُعجزةُ هي أن أرَ ما لا يمكنُ رؤيتُه! أسمعُ ما لا يسمعُه الآخرون! أحيا في عالمٍ لم يَعُد له وجودٌ بَعد! هذه هي المُعجزة.

- وما الفرقُ إذاً بينك وبين المُختلِّ عَقلياً؟!

- المُختلُّ تتغيَّرُ رؤيتُه وكذلك حديثُه بين الحِينِ والآخر.. أما أنا فما أراهُ وما أسمعُه وما أحسُّه ثابتٌ لا يتغيَّرُ.

- اسمعني يا صديقي.. لك أن تُحِبَّ كما وكيفما تشاءُ.. ولكن لا ينبغي أن يُعطِّلَ مثلُ هذا الحُبِّ الغريبِ حياتَك الطبيعيةَ بشكلٍ أو بآخرٍ.. فماذا لو تزوَّجتَ إذاً بإحدى الفتياتِ الجَميلات؟!

- كيفَ هذا؟! كيف لي أن أتزوَّجَ بفَتاةٍ وأنا مُرتبِطٌ بأخرى؟!

- أفهمُ من كلامِك إذاً أنك لن تتزوَّجَ أبداً؟!

- إن تزوَّجتُ، فلن أتزوَّجَ إلا "كاميليا".

فقال صديقي ساخراً: تتزوَّجُها في حُلمِك.. أليسَ كذلك؟!

- نعم.. وقد تركتُ لها رسالةً بخُصوصِ هذا الأمرِ وسأعرفُ رَدَّها الليلةَ.

استطرد صديقي حديثَه إليَّ ساخراً: تركتَ لها رسالةً! وستعرفُ رَدَّها الليلةَ! يَبدو أن الأموات يَحيون بيننا وأنا لا أدري!

فأجبتُه في شيءٍ من الانفعالِ: بَعيداً عن سُخريتِك هذه، إلا أنني بالفِعلِ، ألقاها.. وتلقاني، أحدِّثُها.. وتُحدِّثُني، أُراسِلُها.. وتُراسِلُني، تجمعُنا علاقةٌ عاطفيةٌ مثلها مثل أيَّةِ علاقةٍ أخرى إن لم تكن أكثرَ عاطفيةً، ولكن الفرقَ فقط هو أنكم تعشقون وتلتقون في عالمِكم هذا، أما نحن.. فنعشقُ في أحلامِنا وخَيالاتِنا.. ولسنا بحاجةٍ إلى الحياةِ أو الحُبِّ في عالمِكم العَقيم هذا.

فقال صديقي بهُدوءٍ، آسِفاً على تهكُّمِه هذا: مَعذرةً صديقي إن كُنتَ قد تَحاملتُ عليك بكلامي هذا دونَ قَصدٍ.. فأنا لا أقصدُ مُضايقتَك، ولكنني أخشى عليك من تفكيرِك هذا.. ثم استطرد حديثَه، مُحاوِلاً إرضائي قائلاً: اخبرني إذاً.. ماذا كتبتَ لها في رسالتِك الليلةَ؟

- كتبتُ إليها بَعضاً من العُهودِ.. فقُلتُ لها، أتعهَّدُ لكِ ألا أخطئ في حَقِّكِ أبداً، وإن أغضبتُكِ، فلن أهينَكِ، وإن أهنتُكِ، فلن أغفرَ لنَفسي أبداً، وإن غَفرتي لي، فسأظلُّ لكِ طَوعاً.

أتعهَّـدُ لـكِ ألا أخاصـمِك، وإن خاصـمتُكِ، فلـن أطيـلَ، وإن أطلـتُ، فسأرقبُكِ من بَعيدٍ، وإن ضللتي عَنّي، فسأسحقُ كِبريائي.

أتعهَّدُ لكِ أنكِ ستظلّين جَميلتي ما دامت حياتي، وإن قَبُحتي في عيني، فسأذكرُ أنكِ كُنتِ مَلِكَتي الجميلةَ يوماً، وإن لم أذكر، فسيُذكِّرُني أطفالي منكِ، وإن لـم يكـن لي، فسـتُذكِّرُني أحلامي البائـدة، وإن لـم أحلـم، فسيُذكِّرُني خَيالي المريض.

أتعهَّدُ لكِ أنني سأظلُّ وَفِيّاً لكِ مَدى الحياةِ، وإن شَككتِ، فاسأليني، وإن خدعتُكِ، فعاتبيني، وإن لم أستجب، فدلِّليني كطِفلٍ لكِ، وإن اعتذرتُ لكِ، فاحتويني ولا تخسريني.

أتعهَّدُ لكِ أنني سأظلُّ سعيداً ما دُمتُ معكِ، وإن بكيتُ يوماً، فغَنّي لي، وإن جَهِلتي، فارقصي لي، وإن خَجِلتي، فداعبيني ولا تتجاهليني.

أتعهَّدُ لكِ ألا أنشغل عنكِ أبداً، وإن شردتُ عنكِ، فاسأليني فِيمَ، وإن كان في غيرِكِ، فاسأليني لِمَ، وإن كان دونَ، فدَعيني في بَحرِكِ عائما.

فقال صديقي، وقد ارتسمت على شَفتيه ابتسامةٌ مُندهِشة: إن كان لـ"كاميليا" فَضلٌ عليك.. فليس هناك أفضل من أنها جعلتَك شاعراً.. مُتيَّماً بها، ولكن.. هل أنت واثقٌ من قبولِها الزواجَ منك؟

- إنني أعلمُ جيداً أنني ما دُمتُ عاشقاً، فسأظلُّ وحيداً.

- وماذا عليك إذاً؟ كيفَ لكَ أن تحيا في هالةٍ وعالمٍ قد انقرضَ مُنذ زمنٍ طويلٍ؟!

- الحُبُّ، فالحُبُّ لا زمنَ لـه، لا ماضيَ ولا حاضرَ ولا مُستقبلَ يَحِدُّه، الحُبُّ كيمياء تجمعُ بين شخصين قد لم يَلتقيا مُطلقاً! بل وقد يكونُ هناك فاصلٌ زمنيٌّ هذا مِقدارُه، كما كِلينا "أنا" و"كاميليا"! ولكن إن لم يجمعنا الحُبُّ في عالمِنا هذا.. واقعاً كان أم أحلاماً.. فبالتأكيدِ سيجمعُنا في الآخرةِ.

- إذاً فأنت على أملٍ أن تجتمعَ بها في العالمِ الآخر؟!

- إنه حَتماً ولا بُدَّ أنني سألتقي بها في العالمِ الآخر.. فأرواحُ العُشّاقِ لا بُدَّ وأن تلتقيَ في سَماءِ الأشواقِ.

- وماذا عن عالمِنا هذا.. أتتركُه يَمضي ويَضيعُ منك هَباءً؟!

- إنني عَشِقتُ زَماناً غيرَ زَماني.. ليتَ زَمانَها هو زَماني! ولكن أيعودُ الزمنُ إلى الوَراءِ؟! إذاً ليس في الإمكانِ أكثر مما كان، فالحُلمُ حَياة، والخَيالُ

نَجـاة، إنني أكـادُ أقـولُ أنني مجنونُهـا! مجنـون كاميليـا! مَـن أنـتِ؟! كيـفَ أنتِ؟! لماذا أنتِ؟! لستُ أدري!

تمَّت..

القصة السابعة

"البلاهين"

خلفَ قفصِ الاتهامِ، يقفُ رجلٌ شابٌّ يبلغُ من العُمرِ قُرابةَ الخمسةِ وعشرين عاماً، وبجانبِه سيدةٌ جَميلة المَنظر جداً تبلغُ من العُمرِ حوالي خمسةَ وثلاثين عاماً تحملُ طِفلاً رضيعاً، يَبدو عليهما الحُزنُ الشديد، والدُموعُ تكادُ تفِرُّ من أعينهما.

يقفُ "وكيل النيابة" للإدلاءِ بأقوالِه في قضيةِ اليومَ: سيدي القاضي، إن القضيةَ التي أمامَنا اليومَ تجاوزت كُلَّ الخُطوطِ الحَمراء! تجاوزت كُلَّ القِيَمِ والمبادئ والشَرَفِ والأخلاق! لم ترعَ حُرمةَ الدينِ ولا القانونِ ولا قِيَمِ المجتمعِ! لم ترعَ حُرمةَ الجسدِ ولا النفس! استحلَّت واستباحت ما لا يمكنُ استباحتُه! ليتَها كانت قضيةَ دَعارةٍ أو اغتصابٍ أو إثباتِ نَسَبٍ أو حتى شُذوذ! على الرغم من بَشاعةِ كُلِّ هذه، إلا أن قضيتَنا اليومَ هي أكثرُ بَشاعةً وفَظاعةً وفَظاظةً! قضيةٌ يهتزُّ لها عرشُ الرحمن! إنها زِنا المَحارم يا سادة! شقيقٌ يمارسُ الجنسَ مع شقيقتِه دونَ أدنى مُراعاةٍ لحُرمانيةِ الجسدِ! والأدهى من ذلك أن هذا تمَّ برِضا وقبولٍ تام بين الطرفين! وليس

هذا فحسب سيدي القاضي! إننا نجدهما يُنجِبان طفلاً بريئاً ليس له أيُّ ذَنبٍ إلا أنه ابنٌ لهَذين الفاجرين الكافرين المُستبيحين! ما ذنبُ هذه الضحيةِ البريئة؟! أيولدُ بين أبٍ وأمٍّ، ويحيا كما لو كان يَتيماً؟! أبٌ وأمٌّ تقودُهما رَغبةٌ جِنسيةٌ حَمقاء ينتجُ عنها هذا الوليدُ البريء! ومن المُثيرِ للاشمئزازِ سيدي القاضي، اعترافُهما الصريحُ بزِيجتهما على حَدِّ قولِهما، على الرغم من أنه لم يكن هناك مأذونٌ أو شُهودٌ على ذلك! فكيفَ إذاً يُسمّونها زِيجةً؟! عَلاوةً على أنهما يعترفان ببُنوَّةِ هذا الطفلِ لهما! أرأيتُم فُجراً مثل هذا من قبل؟! كُلَّما حاولتُ تخيُّلَ مثلِ هذا الأمرِ، يعجزُ بل ويتوقَّفُ عقلي عن التفكيرِ! كيفَ لشقيقٍ أن يُداعِبَ شقيقتَه ويمارسَ الجنسَ معها دونَ أدنى إحساسٍ بالذنبِ الذي اقترفاه؟! كيف تتحوَّلُ مَشاعرُ الأخوَّةِ الخالصةِ البريئةِ إلى رَغباتٍ جِنسيةٍ حَمقاء؟! كيف يُنجِبان طفلاً لن يعترفَ به المجتمعُ أبداً؟! كيف كانا يُفكِّران كلاهما في مُستقبلِ هذا الطفلِ؟! ما هو دِينُهما، وما هي مِلَّتهما؟! لا يمكنُ لأي دِينٍ أو مِلَّةٍ على الأرضِ أن تبيحَ مثلَ تلك المَحظوراتِ المُشينةِ، سيدي القاضي.. لا داعيَ إذاً من الأسئلةِ الكثيرةِ التي قد تدورُ في أذهانِ البعضِ.. لأنه ليس هناك من تفسيرٍ واضحٍ لهذا إلا أنهما شاذّان مُستبيحان، لا مِلَّةَ لهما ولا دِين.. يضربان بالدِينِ وقِيَمِ المجتمعِ بعَرضِ الحائطِ، غير مُكترِثين بما قد ينتجُ عن تصرفاتِهما الحَمقاء! ولكن، حان الوقتُ.. وهو الآنَ.. أن يأخذَ المجتمعُ

بثأرِه من هَذين الحَمقاوين الفاجرين، وينتقمُ لكُلِّ الشُرفاءِ، إنني أطالبُ ألا تأخذكم بهما أيُّ شَفَقَةٍ أو رَحمةٍ، لأنهما لا يستحقان ولو مُجرَّدِ التفكيرِ في أمرِهما الشاذ هذا، إنني أطالبُ بتوقيعِ أقصى العُقوبةِ على هَذين المُتهمين المُنحرِفين، أطالبُ بالإعدامِ شَنقاً ليكونا عِبرةً لكُلِّ من تُسوِّلُ له نفسَه لارتكابِ مثلِ هذا الأمرِ المُشينِ، ولديك سيدي القاضي ما يكفي من أدلَّةٍ لإدانتِهما، وشُكراً سيدي القاضي لسِعةِ صَدرِكم.

"القاضي" (من أمام المَنصَّة): مُحامي الدِفاع يتفضَّل.

سُكونٌ تام يعمُّ ساحةَ المحكمةِ، ينظرُ "القاضي" إلى "المُتهم" ويقول: أين مُحامي الدِفاع؟!

يردُّ "المُتهم": ليس لنا من يُدافِعُ عَنّا.

يردُّ "القاضي": القضيةُ شائكة وحَرِجَة للغاية.. وإن لم تُوكِّلا لكما مُحامياً للدِفاعِ، سيكونُ الأمرُ خطيراً بالنسبةِ لكما.

- بَعد إذنِ عَدالةِ المحكمة.. أيُمكِنُني الدِفاعُ بنَفسي؟

- إن كان لديك من الحُجَّةِ ما يُمكِّنُك من الدِفاعِ عن نَفسِك، فعَليكَ بهذا.

- أشكرُك سيدي القاضي.

سيدي القاضي.. حَضراتُ المُستشارين.. حَضراتُ السادةِ الحُضور، إن ما سأقولُه يحملُ ما بداخلِنا أنا وزوجتي أو شقيقتي كما تعلمون، إنني أعترفُ بجريمتي كاملةً حَسبما وصفت عَدالتُكم، ولا أتنصَّلُ منها البَتَّة، أعلمُ جيداً مَدى بَشاعةِ جُرمي هذا حَسبما ذكرت عَدالتُكم، ولكن، ألا تنبَّهت النيابةُ لفارقِ العُمرِ الزمني بيني وبين شقيقتي؟! إن شقيقتي هذه تكبرُني بعَشرةِ أعوامٍ، تُوفِّيَ والدي قبل أن أولدَ، تُوفِّيَت والدتي وأنا في الخامسةِ من العُمرِ، كانت شقيقتي تبلغُ من العُمرِ آنذاكَ خمسةَ عَشرَ عاماً، هذا الفارقُ الزمني بيني وبين شقيقتي.. جعل منها سيدةً مسئولةً على الرغمِ من صِغَرِ سِنّها وَقتئذٍ، وجعل مِنّي ولداً مُدلَّلاً يعشقُ مَن يهتمُّ به أو يَحنو عليه، بدأت شقيقتي تأخذُ على عاتقِها حِملَ تربيتي ورعايتي، وبالفِعلِ بدأت تُدلِّلُني كطفلٍ لها، لم تقع عيني على شيءٍ إلا وتأتي به إليَّ سريعاً، مرَّت الأعوامُ، عامٌ تلو الآخر، وأنا لم أرَ حُبّاً مثلما رأيتُه في عَينيها! لم أتوسَّم حَناناً كما في حِضنِها! لم أدرك عَطفاً مثلما مَنحتني إيّاه! فمُنذُ انفتحت عَيناي، وأنا لم أرَ غيرَها، إنها بالفِعلِ قد أغنتني عن الأبِّ والأمِّ والصديقِ والحبيب! فمعها لم أشعر باليُتمِ لحظةً! قد استغنيتُ بها عن الكُلِّ! لأنها كانت الكُلَّ في الكُلِّ! الحُبُّ هي! الحياةُ هي! السعادةُ هي! ولا أكذبُ إن قُلتُ أن الجَنَّةَ هي أيضاً! إنني حاولتُ جاهداً أن أحبَّ فتاةً أخرى مِمَّن في مثلِ عُمري، ولكن دونَ جَدوى، فحُبُّ شقيقتي قد مَلَكَ

كياني بالكامل، متى أحببتُها؟! كيفَ أحببتُها؟! لماذا أحببتُها؟! لا أعلمُ، ولكن، إن كان للعِشقِ سببٌ، فأنا لستُ بعاشقٍ، أعترفُ أنني أحبُّها، وهي أيضا تُحِبُّني بالأكثرِ بكُلِّ ما تحملُه الكلمةُ من مَعنى، إنني رأيتُ فيها الأمَّ المُضحِّيةَ.. والتي ضَحَّت بزَهرةِ شَبابِها وجَمالِها المُفرِطِ في أن تكونَ زوجةً لديها الكثير من الأبناءِ، وذلك حتى تتفرَّغَ لتربيتي ورعايتي، على الرغمِ من عِشقِها لأن تكونَ أمّاً! ولكن حُبَّها لي كان أقوى من رَغبةِ الأمومةِ لديها! إنني رأيتُ فيها الأختَ الصديقة.. والتي كانت بِئراً لأسراري، ومُوجِّهاً راشداً لأفعالي، إنني رأيت فيها الحبيبةَ المُخلِصة.. والتي كانت تُحِبُّني بإخلاصٍ ودونَ أيِّ غرضٍ.. وأذكرُ أنني كُنتُ مريضاً ذاتَ يومٍ، وهي الأخرى كانت مريضةً.. ولكنها كانت تتحاملُ على مرضِها والذي كان أشدَّ فَتكاً من مرضي حتى تُمرِّضَني، دونَ أن تنتظرَ من يُمرِّضُها في المُقابِلِ! إنني رأيتُ فيها الزوجةَ الوَفِيَّةَ.. فبَعدَ عِشرةٍ طويلةٍ من السنواتِ.. لا يمكنُ لي أن أثقَ بغيرِها، كيف يمكنُ لي بَعدئذٍ أن أتزوَّجَ بفتاةٍ أخرى لا أعرفُ عنها إلا اسمَها وبعضاً من جوانبِ شخصيتِها؟! كيف يمكنُ لي أن أحبَّ أو أن أسلِّمَ قلبي لأخرى، وهو مأسورٌ ومِلكٌ لشقيقتي؟! ألا تعتبرون هذا خِيانةً؟! الخِيانةُ هي أن أتزوَّجَ بغيرِها، إنه لا يمكنُ لي أن أتصوَّرَ أن أبعدَ عنها أو تبعدَ عَنِّي يوماً دونَ أن أرَها! قد تعجبون من أمري هذا، ولكن هذه

هي الحقيقةُ بالفِعلِ، فأنا أحبُّها ومن صَميمِ الوجدانِ، وأكادُ أجزمُ أنكم لو وضعتُم حُبَّ الأرضِ كُلها في كَفَّةٍ، وحُبّي في كَفَّةٍ أخرى، لرَجَحَت كَفَّتي.

رُبما يقولُ بعضُكم.. لماذا لم نحيا معاً كأشقاءٍ ولا تتعدّى علاقتُنا هذه العلاقةَ الأخويةَ البريئة؟ ولكنني أقولُ لكم، العلاقةُ الأخويةُ لا تتعدّى كونَها علاقةً جيدةً بين شخصين تربطهما صِلةُ الدَمِّ، أما العلاقةُ الزوجيةُ فهي علاقةٌ توأمية، التحامية، اتحادية.. يصيرُ الاثنان جسداً واحداً، فبلا شَك العلاقةُ الزوجيةُ أسمى وأعمقُ بكثيرٍ من العلاقةِ الأخويةِ، لذلك أفضّلُ أن أقولَ زوجتي بَدَلاً من شقيقتي، لا يمكنُ أن يكونَ الحُبُّ الذي أكِنُّهُ لها أن يكونَ مُجرَّدَ حُبٍّ أخوي! إنه وإن جازَ القولُ، حُبٌّ أبدي، لا ولن ينتهي مَهما كانت الظُروفُ! حُبٌّ لا يمكنُ لي أن أصِفَه بكلماتٍ! حُبٌّ تُترجِمُه أفعالٌ تكادُ تكونُ مُشينةً في نظرِ المجتمعِ! لذلك، كان الحُبُّ أقوى مِنّي، ومنها، ومن المجتمعِ بأسرِه، فإن كان الحُبُّ ذَنباً، فحاكمونا.. وإن لم يكن، فأغيثونا.

سيدي القاضي.. لم يكن قرارُ الزواجِ بالأمرِ السَهلِ كما تعتقدُ، فأيُّ مأذونٍ هذا الذي يمكنُ له أن يعقدَ وثيقةَ زواجٍ بيني وبين شقيقتي؟! ومَن يقبلُ أن يشهدَ على وثيقةِ زَواجٍ كهذه؟! وكيف سنَبدو نحن بين أقاربنا وزُملائنا ومَعارفنا وجيراننا إن أقدمنا على مثلِ هذا الأمرِ؟! ماذا لو أنجبنا

طِفلاً؟! وكيف سيكونُ مَصيرُه؟! وفوقَ كُلِّ هذا، ماذا عن الدِينِ سيدي القاضي؟! إن الدِينَ ينهي عن مثلِ هذا الأمرِ تماماً، ويُحرّمُه حُرمةَ الدَمِّ، كُلُّ هذا وأكثرُ قد أخذناهُ في اعتباراتِنا، ولكن، لم يكن أمامَنا إلا تذليل هذه العَقباتِ، كيفَ؟! شيءٌ واحدٌ فقط يمكنُ أن تتذلَّلَ أمامَه جميعُ الأشياءِ مَهما بلغت ذُروتُها، الحُبُّ، الحُبُّ سَيِّدُ الأشياء، أتدركون مَعنى "الحُبُّ سَيِّدُ الأشياء"؟مَعذرةً سيدي القاضي، إنكم تعرفون عن الحُبِّ بعضَ المعرفةِ، ولكنكم لا تؤمنون ولا تعترفون به، إنما نحن، دِينُنا الحُب، سِلاحُنا الحُب، قانونُنا الحُب، وقانونُ الحُبِّ يسودُ على كافَّةِ القوانين التي وضعها البشرُ، قانونُ الحُبِّ يسودُ على الأعرافِ والتقاليد والقِيَمِ المُجتمعية، فإن كانت الأعرافُ أو التقاليدُ أو القِيَمُ تتعارضُ مع الحُبِّ وتُجرّمُه فما المَنفعةُ إذاً؟! الحُبُّ يسودُ لأنه ثابتٌ لا يتغيَّرُ، أما الأعرافُ والتقاليدُ فهي أشياءٌ مَطّاطية مُتغيّرة من حِينٍ إلى آخر، وكذلك من مُجتمعٍ إلى آخر، أما عن القِيَمِ والقوانين الدينية، والتي يتلاعبُ بها الكثيرُ من الجُهلاءِ كمادَّةٍ خِصبةٍ يربحون بها في يومِنا هذا.. فقانونُ الحُبِّ لا يمكنُ أن يتعارضَ مع الدِينِ، الله مَحبَّة، الله رَحيم، الله غَفور، لا يمكنُ للهِ عز وجل أن يُعاقِبَنا على حُبِّنا هذا، فالحُبُّ لا بُدَّ وأن يُقابِلَه حُبٌّ، أما عن الجُهلاءِ مِمَّن ينادون بعِقابِنا في الدُنيا، ويَقينهم من عِقابِنا في الآخرةِ فهذا جَهلٌ صَميمٌ منهم، ألا يدرون كيفَ كان الأمرُ في قديمِ الأزلِ؟ ألم

يتزوَّج الشقيقُ بشقيقتِه، وكذلك الأبُّ بابنتِه، والأمُّ بابنِها ليُكثِروا النَسلَ في الأرضِ؟! فإن كانوا قديماً يتزوَّجون لهدفٍ كهذا، والذي يَبدو بسيطاً في نظرِ البعضِ.. فكَم يكونُ لو كان الهدفُ أسمى وأعظم! أظنُّ أنه ليس هناك ما هو أعظمُ وأسمى من الحُبِّ! فالحُبُّ إن لم يكن أمراً دينياً وإلهياً بَحتاً، فلا يمكنُ له بأي شكلٍ من الأشكالِ أن يتنافى مع أيٍّ من القِيَمِ والقوانين الدينية، وإن لم يكن هُناك مَن يشفعُ لنا يومَ القيامةِ، فليس من شيءٍ آخرٍ سِوى الحُبِّ وحده.

أما عن المُعاناةِ التي عانيناها، أتعلمُ سيدي القاضي كيف كان يُعامِلُنا جيرانُنا وزملاؤنا بَعدَما علموا بأمرِنا؟ كُنّا عندما ننزلُ للتسوُّقِ أنا وزوجتي سوياً، كُنّا نسمعُ بآذانِنا السُبابَ بأبشعِ الألفاظِ.. ناهيكَ عن البُصاقِ، والذي كان يستقرُّ على خَدَّينا في كثيرٍ من الأحيانِ! وليتَهم كانوا يكتفون بذلك! فأخذوا يفضحون أمرَنا بين التُجّارِ، مما يجعلُنا نتعرَّضُ لجَشَعِهم واستغلالِهم من رَفعِ سِعرِ السِلعةِ وإلا فليس لنا ما نُريدُ! وليس هناك مَجالٌ للحديثِ عن كَم من الهَمساتِ واللَفتاتِ والصَيحاتِ من أشخاصٍ لا نعرفُهم ولا يعرفون عَنّا سِوى أمرِنا هذا!

أتعلمُ سيدي القاضي كيفَ كان حالُنا عندما أوشكت زوجتي على أن تضعَ؟ إنني حاولتُ بكُلِّ ما أوتيتُ من قوَّةٍ أن أحضرَ لها طبيباً.. وما أن

يعلمَ الطبيبُ بأمرِنا إلا ونجدُه يخرجُ سريعاً إلى خارجِ المنزلِ، مُلقِياً أجرتَه في وجهي باحتقارٍ واشمئزازٍ كما لو كُنتُ قَوّاداً! فما كان بيدي من شيءٍ إلا أن أقفَ بجانبِها حتى تضعَ طِفلَنا بخيرٍ، ويُكتَبُ له ولها السلامةُ، ووُلِدَ الطِفلُ سالماً، وحاولتُ استخراجَ شهادة ميلادٍ له، ولكن، دونَ جَدوى، فسيادتُكم تعلمون جيداً أنه لا يمكنُ أن تُصدَرَ شهادةُ ميلادٍ لطِفلٍ من أبوين شقيقين، فإن كُنّا قد أخطأنا من وِجهةِ نظرِكم سيدي القاضي فما ذَنبُ هذا الطِفلِ البريء؟! أيحيا يَتيماً، وأبواهُ على قَيدِ الحياةِ؟! كيف يمكنُ لأي مَدرسةٍ أن تقبلَه بدونِ شهادةِ ميلادٍ؟! كيف يمكنُ له أن يحيا حياةً طبيعيةً مثل كُلِّ مَن في سِنِّه؟! لو كان لَقيطاً، لتبنَّته إحدى دورِ الأيتامِ، ورُبما تبنَّته إحدى العائلاتِ التي حرمها اللهُ من نِعمةِ الإنجابِ، أما هذا.. فليس لَقيطاً! إننا أبواهُ بالفِعل، أنا أبوه، وهذه أمُّه، ونريدُ أن يحيا بيننا حياةً طبيعيةً، أيكثرُ علينا أن نحيا مِثلَكم؟! مَعذرةً سيدي القاضي، إن كان حُبُّكم لزَوجاتِكم يبلغُ قِيراطاً، فحُبّي لزَوجتي يبلغُ أربعةً وعشرين، كيف لكم تنادون بالحُبِّ، وتُدافِعون عن الشَرَفِ والقِيَمِ بهذا الشكلِ، وتُهاجِمون حُبّاً هذا مِقداره؟!

أتدركُ سيدي القاضي كَم من المُعاناةِ التي عانيناها حتى هذه اللحظةِ؟ كُلُّ هذا قَبِلناهُ، ونَقبلُهُ، وسنَقبلُهُ، في سبيلِ الحُبِّ، فالحُبُّ سَيِّدُ الأشياءِ، وأعظمُ شَفيع.

ألتمسُ منك سيدي القاضي، بحَقِّ الحُبِّ، بحَقِّ الرَحمةِ، بحَقِّ العَدالةِ التي تُمثِّلونها، انقذوا هذا الطِفلَ البريء، أما عَنّي أنا وزوجتي، فلا ننتظرُ حُكمَك سيدي القاضي بقدر ما ننتظرُ حُكمَ المُجتمعِ.

إنني ألتمسُ من المُجتمعِ ألا يحكم علينا حُكمَ "البلامين"، أتدرون يا سادة ما هو "البلامين"؟ "البلامين" مُصطلحٌ قد لا تجدونه في أيِّ مُعجَمٍ لُغوي ولكنه وِفقاً لمُعجَمي الخاص أفترضُ أنه الشيءُ الموجودُ بالفِعلِ ولا يَحتمِلُ الشَكَّ، ومع ذلك يُنكِرون وجودَه ولا يعترفون به! فنحن مُتزوِّجان بالفِعل، ولكنهم يُنكِرون زِيجتَنا هذه كما لو لم تكن! لدينا طِفلٌ، ولكنهم لا يعترفون ببُنوَّتِه لنا، على الرغمِ من اعترافِنا به! أحبُّ زوجتي وكذلك هي إلى حَدِّ العِبادةِ، ومع ذلك يُهاجِمون هذا الحُبَّ ويعتبرونه حَرامَ شَرعاً! فالحُبُّ يُحرِّمونه! والزَواجُ يُنكِرونه! والطِفلُ لا يعترفون به! إن كان الحُبُّ

حَراماً، فلنذهب إلى جَحيمِ "البلامين"، وإن لم يكن، فأغيثونا من هذا الجَحيم.

تمَّت..

القصة الثامنة

"شـــــاذ ولكن"

ينفتحُ بابُ الشَـقَّةِ بهُدوءٍ، وإذ بالزوجةِ تدخلُ حاملةً شَـنطةً تحوي بعضاً من الخُضراواتِ، وما أن تضعَ الشَـنطةَ على طاولة السُـفرة، إذ بها تسمعُ أصواتاً غريبةً بالشَـقَّة، فأخذت تنصتُ جيداً، وبَدا أن الصوتَ قادمٌ من غُرفةِ نَومِها، كانت الأصواتُ تَبدو خَليطاً من تأوُّهاتٍ وضَحكاتٍ وصَرخاتٍ مَكتومـةٍ غيـر واضـحة المَعـالِم، ازداد فُضـولُ الزوجـةِ لأن تعـرفَ مَـن بالداخلِ، تسلَّلت إلى غُرفتِها في خُطى بطيئة، عَلَّهم لُصوصٌ يريدون سرقة الشَـقَّة، وبـدأت تنظرُ من ثقبِ البابِ، وإذ بها ترى، ما لم تكن تتوقَّعُه يوماً! ما هذا الذي رأته؟! زوجُها! المُعلِّمُ ومُربِّي الأجيالِ! والدُ ابنِها! ، والذي يبلغُ من العُمرِ الآنَ خَمسَ سنواتٍ! في حِضنِ صديقِه "أمين"! كيفَ؟! متى؟! لماذا؟! أخذت الدُموعُ تنزلقُ على خَدَّي الزوجةِ، غير مُصدِّقةٍ لما رأت، إنه كان من المُمكنِ لها أن تُصدِّقَ ما لا يمكنُ تصديقُه.. إلا أنه لم يكن بإمكانِها يوماً أن تُصدِّقَ ما قد رأته الآنَ! إنها لم تفترض بل ولم تشعر لحظةً طِيلةَ السَبعِ سنوات الماضية أن زوجَها رجلٌ شاذ جِنسياً! كيف

استطاعَ أن يخدعَها طِيلةَ تلك المُدَّةِ؟! هل هذا الأمرُ بجَديدٍ عليه، أم أنه كان كذلك مُنذ زمنٍ وهي لا تَدري؟! كيف أنها لم تشعر لَحظةً أن زوجَها هكذا وهو يُعاشِرُها مُعاشرةَ الأزواجِ، خاصَّةً وأنها تعلمُ جيداً أن الرجلَ الشاذ جِنسياً لا يستمتعُ إلا مع مَن يُماثِلُه جِنسياً؟! إنه كان من المُمكنِ لها أن تشكَّ في نَفسِها.. ولم يكن بإمكانِها يوماً أن تشكَّ في زوجِها ولو للحظةٍ! إنه زَوجٌ مِثالي، بكُلِّ ما تحملُه المِثاليةُ من مَعنى، ذو مَركزٍ مَرموق، مَركزٌ يَرغبُه كُلُّ قِيادِي، مَحَطُّ إعجابِ الكثيرِ من صَديقاتِها الفتياتِ الآنساتِ، بل والسيداتِ المُتزوِّجاتِ أيضاً، أبٌ يَفخرُ به كُلُّ ابنٍ وابنةٍ، كيفَ له أن يكونَ هكذا؟! إنه يستحيلُ أن يكونَ مَن رأته هو زوجها بالفِعلِ! بالتأكيد ليس هو، قد يكونُ هذا شخصاً يُشبِهُه كثيراً، رُبما أيضاً هذه ليست شَقَّتهما، إنها كادت أن تُشَكِّكَ في نَفسِها في سبيلِ أن تُبرِّئَ زَوجَها مما قد رأته بأمِّ عَينيها! وقرَّرَت أن تنظرَ من ثقبِ البابِ ثانيةً، لتتحقَّقَ من هَويَّةِ مَن بها، وفيما هي تُقرِّرُ هذا، إذ ببابِ الغُرفةِ ينفتحُ أمامَها، وترى أمامَها زَوجَها، وخلفه صديقُه "أمين"، وما أن وقعت عينُ كُلٍّ منهما على الآخرِ، إذ بـ"الزوج" يتلعثمُ ويتلجلجُ وينطقُ بكلامٍ غير مفهوم، والذي كان مضمونُه، أنتِ، أمين، كان يُريد، أن يَرَ الـ... ، وانسحب "أمين" في هُدوءٍ إلى خارجِ الشَقَّةِ دونَ أن ينبسَ بكلمةٍ.

وقبلما يُوجِّهُ "الزوج" أيَّ سؤالٍ إلى زوجتِه، إذ به يرى عَيني زوجتِه وقد اغرورقتا بالدُموعِ، فما كان أمامَه من شيءٍ إلا أن يصمتَ بعضاً من الوقتِ.

وبَعدَ مِضِي بُرهةٍ من الزمنِ، أخذ "الزوج" يَجِسُّ نَبضَ زوجتِه عَمّا أصابَها حتى يَتداركَ الموقفَ فقال: ماذا حدث؟! ما لكِ تبكين هكذا؟!

ولم تُجِب "الزوجة" بشيءٍ.

فصمت "الزوج" بِضع دَقائق أخرى، وأخذ يستأنفُ أسئلتَه لها مَرَّةً أخرى.. ولكن كان يَبدو عليه تلك المَرَّةِ شيءٌ من التوتُّرِ فقال: متى أتيتِ إلى الشَقَّةِ؟ للتَو؟ أم مُنذ ساعةٍ؟

صمتت "الزوجة" لَحظاتٍ، ثم قالت في حَسرةٍ: مَن أنتَ؟!

فقال "الزوج" بتعجُّبٍ شديد: أنا زوجُكِ.. الذي تعرفينه جيداً!

فاستطردت "الزوجة" حديثَها مُتأثِّرةً بما رأت: كُنتُ أظنُّ قبلَ الآنَ أنني أعرفُك جيداً، ولكن الآنَ أرى أمامي رجلاً، ثم صمتت لُحيظةً، واستطردت قائلةً، لَيتَه كان رجلاً!

فقال "الزوج" بادياً عليه التوتُّرُ الشديدُ المُفعَّمُ بالغَضَبِ: احترسي من كلامِكِ هذا.. ماذا تقصدين؟!

فقالت "الزوجة" مُحذِّرةً: إن كان لديكَ من جيناتِ الرُجولةِ ولو شيءٌ ضَئيلٌ منها.. فعَليكَ بالطلاقِ الآنَ.. وإلا..

- وإلا ماذا؟!

فقالت "الزوجة" باستفزازٍ: وإلا فضحتُ أمرَكَ أيها الشاذ.

كان وَقعُ هذه الكلمةِ على "الزوج" كالصاعقةِ التي ألجمته.

ماذا يمكنُ أن يقولَ لزَوجتِه بَعدَما أُفتضِحَ أمرُه أمامَها؟! كيفَ له أن يُبرِّئَ نَفسَه من فِعلتِه المُشينةِ هذه؟! إن طَلَّقَ زَوجتَه بُناءً على رَغبتِها حتى لا ينفضحُ أمرُه، سيُثيرُ خبرُ الطَلاقِ هذا دَهشةَ الجميعِ من الأقارب والزُملاءِ والمَعارف والجيران، فإن الجميعَ يعلمُ جيداً كَم يُحِبُّ كلاهما الآخر، وأنهما تزوَّجا عن قِصَّةِ حُبٍّ لا تَقِلُّ نِسبةً عن مَشاهير وأساطير الحُبِّ التي نعرفُها ونسمعُ عنها، عَلاوةً على أنه إن طلَّقها سينهدمُ البيتُ والأسرةُ بالكاملِ، بَعدَما كانت أسرتهما مَحَطَّ إعجابِ بل وحَسَدِ الجميعِ، إنها أسرةٌ هانئةٌ هادئةٌ سعيدةٌ، لم يذكر أحدٌ أنهما اختلفا يوماً، فماذا يفعلُ إذاً؟! إنه يُحِبُّها، ولا يستطيعُ الاستغناءَ عنها أبداً، ولكنه أيضاً

يخشى من افتضاحِ أمرِه المُشينِ هذا، ليس من شيءٍ أمامَه الآنَ إلا أن يلتمسَ منها السَماحَ والمَغفرةَ بحَقِّ عِشرةِ السِنين التي بينهما.

فبدأ يقولُ لها مُستعطِفاً: حبيبتي، الطَلاقُ جَزاءُ الخِيانةِ.. وأنا لم أخُنكِ يوماً.

فقالت "الزوجة" في حَسرةٍ: لَيتَني رأيتُكَ مع سيدةٍ.. لكان الأمرُ أهون بكثير.

فقال "الزوج" مؤكِّداً: لا يمكنُني أن أخونَكِ أبداً، لأني أحبُّكِ، ولا يمكنُني الاستغناءُ عَنكِ.

- أنت تكذبُ، كيف لك تُحِبُّني هكذا، وأراكَ الآنَ تُضاجِعُ صديقاً لك على فِراشي وفي غُرفةِ نَومي؟!

- أقسمُ لكِ باللهِ أنني أحبُّكِ، وأستمتعُ بمُعاشرتِك.. ولكن..

تُقاطِعُه "الزوجة" قائلةً: تستمتعُ بالأكثرِ مع صديقك.. أليس كذلك؟!

- لماذا تُحدِّثينني هكذا كما لو كُنتُ خائناً لكِ؟!

- ما رأيتُه الآنَ هو أكثرُ بَشاعةً من الخِيانةِ، أيمكنُك أن تقولَ لي لماذا تزوَّجتَ وأنت هكذا؟!

- كُنتُ أعتقدُ أنه في الزَواجِ سأجدُ ضالَّتي، وكما يمكنُ لأيِّ مريضٍ بأيِّ داءٍ أن يتزوَّجَ، هكذا تزوَّجتُ أنا أيضاً..

- أتجعلُ نَفسَكَ مريضاً كي تَجِدَ لنَفسِك مُبرِّراً لما فعلتَه؟!

- أنا بالفِعلِ مريضٌ، ولا أطيقُ مرضي هذا، وكُلُّ ما أرجوهُ منكِ، أن تتحمَّليني باعتبارِك زَوجتي وشَريكتي.

- إن تحمَّلتُك اليومَ كيفَ لي أن أتحمَّلَكَ غداً؟! كيفَ لي أن أرَكَ بصِفةٍ دَوريةٍ تُمارِسُ مِثلَ هذا الأمرِ الشاذِّ القبيح مع صديقٍ لك؟! كيفَ لي أن أعاشِرَك مُعاشرةَ الأزواجِ، وأنا أعلمُ جيداً أنك... ؟! كيفَ لو رآكَ ابنُك هكذا؟! إنه صَعبٌ جداً بل ويستحيلُ أن أحيا معك كزَوجةٍ بَعدَ الآنَ! إنك خدعتني، كان لا بُدَّ لك أن تُعلِمني بحقيقةِ أمرِك هذا قَبلَ زَواجِنا.

- ماذا كُنتُ أقولُ لكِ وَقتئذٍ؟! أنني شاذٌّ ولكن أحيا حياةً طبيعيةً جداً! شاذٌّ ولكن يمكنُني أن أتزوَّجَ! شاذٌّ ولكن يمكنُني أن أنجبَ طِفلاً يحملُ اسمي! شاذٌّ ولكن يمكنُني أن أصبحَ رَبَّ بيتٍ يُشرِّفُكِ! شاذٌّ ولكن لديَّ من الأصدقاءِ والأحبابِ المُقرَّبين ما يفوقُ الأشخاصَ الطبيعيين! شاذٌّ ولكنني أحبُّكِ! شاذٌّ ولكن لن أقصِّرَ في حُقوقِكِ الزَوجيةِ يوماً! شاذٌّ ولكن لن

تشعري معي لَحظةً أنني شاذٌّ جِنسياً! إن كان شُذوذي هذا لا يتعارضُ مع الحياةِ بطَبيعيةٍ تامَّةٍ، فلا داعي إذاً من التصريحِ به، إن شُذوذي هذا مُجرَّدُ مرضٍ، ولكنه مُزمِن.

- إن كان مرضاً كما تزعمُ، فلماذا لم تذهب للعلاجِ؟!

- إنني بالفِعلِ أتابعُ باستمرارٍ مع أحدِ كِبارِ الأطباءِ المتخصصين مُنذ أكثر من خمسةِ عشر عاماً.

فقالت "الزوجة" في دَهشةٍ بالغةٍ: خمسة عشر عاماً وأنت..!

ثم استطردت حديثَها ساخرةً، مُثبِّطةً من عَزيمتِه: تَبدو النتيجةُ الآنَ مُطمئِنةً جداً! يَبدو أنك ستنتظرُ عُمراً آخر، وقد لا تتماثلُ للشفاءِ! إذاً.. فعليكَ بالطَلاقِ.. والآنَ.

فقال "الزوج" مُتوسِّلاً: لا تتعجَّلي الطَلاقَ، وأمهليني فُرصةً إن تفضَّلتي، إن لم يكن لأجلِ الحُبِّ، فلأجلِ الطِفلِ الذي يربطُنا سوياً، لقد منحني الطبيبُ بَصيصاً من الأملِ، فقد أخبرني أن هذا ليس شُذوذاً بقدرِ ما هو إدمانٌ لعادةٍ سيئةٍ مثلها مثل إدمانِ الخَمرِ، فكما أنه لا بُدَّ لمدمنِ الخَمرِ أن يُصابَ بمرضٍ خطيرٍ بفِعلِ هذه الخَمرِ حتى يمكنَه الامتناعُ عنها، هكذا أيضاً في حالتي هذه، لا بُدَّ أن أُصابَ بصَدمةٍ ما تُعكِّرُ صَفوَ هذه

العلاقةِ الشاذَّةِ حتى يمكنَني الامتناعُ عن مُمارستِها، كيفَ؟! متى؟! ما هي؟! لا أعلمُ.

بدأت "الزوجة" تهدأُ بعضَ الشيءِ، وقالت في شيءٍ من الحَذَرِ: كلامُك هذا جعلني أصدِّقُك بعضَ التصديقِ، وسأحاولُ مُساعدتَك جاهدةً، ولكن ليس لأجلِكَ، إنما لأجلِ الطِفلِ الذي يربطُ بيننا، ولكن، لا بُدَّ أن هناك مُشكلةً ما في نشأتِكَ، أيمكنُك أن تُحدِّثَني عن نشأتِكَ هذه بكُلِّ صَراحةٍ؟ عَلِّي أجدُ عِلاجاً لحالتِكَ هذه.

- بصَراحةٍ تامَّة، نشأتُ مثلَ أيِّ طِفلٍ في سِنِّي، لا أختلفُ عنهم في شيءٍ، وعندما صِرتُ شابّاً يافعاً، أحببتُ إحدى الفتياتِ مثلَ كُلِّ مَن في سِنِّي، ولكن، رفض والدي أن أتزوَّجَ بها لصِغَرِ سِنِّي وَقتئذٍ، حِينئذٍ كانت غَريزتي الجِنسية مُتأجِّجةً للغاية، وكُنتُ أفرِّغُ طاقتي هذه من خلالِ مُشاهدةِ الأفلامِ الإباحيةِ، ولكن، كان الأمرُ يزدادُ معي سوءاً فسوءاً! فكُلَّما كُنتُ أشاهدُ مثلَ هذه الأفلامِ، كانت غَريزتي الجِنسية هذه تتأجَّجُ أكثر فأكثر، وأصبحتُ بين نارين، نارِ الشَهوةِ التي لا تنطفأُ، ونارِ الحِرمانِ من الزَواجِ ومُمارسةِ الجنسِ، وقد كان من الصَعبِ بالنسبةِ لي العُثورُ على فتاةِ ليلٍ تكونُ تحتَ طَوعي وَقتما شِئتُ، فلم يكن أمامي إلا طريقٌ واحدٌ حتى أتغلَّبَ على نارِ شَهوتي هذه، مُمارسة الجنسِ مع صديقٍ لي.. يُشارِكُني

نفسَ التفكيرِ.. ويكونُ تحتَ طَوعي وَقتما وأينما شِئتُ، ولم يكن أمامي من صديقٍ أمينٍ على علاقتِنا هذه إلا "أمين"، وبالفِعلِ بدأنا مُمارسة الجنسِ سوياً مُنذ أكثر من خمسةِ عشر عاماً، بدأ الأمرُ بتجربةٍ.. تحوَّلت إلى عادةٍ.. إلى أن صارت إدماناً، واعتدنا على مثلِ هذه اللقاءاتِ والمُمارساتِ الشاذَّةِ بصِفةٍ دَوريةٍ مُنتظِمةٍ حتى يومنا هذا، دونَ أن يَدريَ أحدٌ بهذا الأمرِ، الكَبتُ والحِرمانُ جعلا مِنّي رجلاً شاذّاً! والزَواجُ جعل مِنّي رجلاً خائناً! كُنتُ أعتقدُ قبلاً أن الزواجَ هو العلاجُ الوحيدُ لحالتي هذه، وعلى النقيضِ ما حدث! كان الأمرُ يتعقَّدُ معي أكثر وأكثر! لم يمنحني الزَواجُ مُتعةً مُماثِلةً للتي يمنحُني صديقي إيّاها! وأصبحَ الزَواجُ بالنسبةِ لي يَحِدُّ من حُريتي هذه، ويُعرقِلُ انفرادي بصديقي! كُنتُ أعتقدُ أيضاً أنه لو صِرتُ أباً لطِفلٍ، سيُخجِلُني فِعلُ مثلِ هذا الأمرِ المُشين، لئلا يُفتضَح أمري أمامَه، ولكن، كانت رَغبتي أقوى من حَيائي وخَوفي هذا!

شيئان فقط كُنتُ وما زِلتُ أخشاهما، الأوَّلُ.. أن يتزوَّجَ صديقي "أمين"، ويجدُ ضالَّته في زوجتِه، الثاني.. أن يتوقّى صديقي هذا، ويتركُني مُعذَّباً هكذا، فإلى مَن أذهبُ حِينئذٍ؟! صديقي هذا هو الوحيدُ الذي أجدُ ضالَّتي فيه ومُتعتي معه! صديقي هذا هو الوحيدُ الذي يمكنُ أن أئتمنَه على سِرٍّ كهذا! صديقي هذا هو الوحيدُ الذي أثقُ فيه دوناً عن غيرِه! صديقي هذا

الذي كُلَّما رأيتُه، أشعرُ وكأن الدُنيا تفتحُ أحضانَها لي! صديقي هذا الذي لا يمكنُني مُعاشرةُ آخرٍ سِواه! صديقي هذا..

تُقاطِعُه "الزوجة" قائلةً: توقَّف.. توقَّف!

فتسائل "الزوج" مُتعجِّباً: لماذا؟!

صمتت "الزوجة" هُنيهةً، في ظِلِّ دَهشةِ "الزوج" ثم قالت: أراكَ صَريحاً للغاية، لذلك، سأصارحُكَ بأمرٍ كُنتُ قَبلاً أخشى ما أخشاهُ أن تعرفَه، أما الآنَ فليس عليَّ من حَرَجٍ، ولكن، لي عليك شَرطان، الأوَّلُ: ألا تفضح أمري هذا، كما أنني لن أفضحَ أمرَكَ، والثاني: ألا تتهوَّر في أمرٍ قد يودي بأسرتِنا بالكاملِ.

فقال "الزوج" مُتوتِّراً: أعِدُكِ بهذا.

قالت "الزوجة" في شيءٍ من الجرأةِ الصادمةِ: ابنُكَ هذا الذي يحيا بيننا، ليس بابنِكَ، إنه ابنُ صديقِكَ، "أمين".

فقال "الزوج" بانفعالٍ بالغٍ، أنتِ تَهذين!! أنتِ تقولين هذا فقط حتى تصدميني في أعزِّ وأوفى صديق، ظَنّاً منكِ أنني سأُشفى بمثلِ هذه الطريقةِ الرخيصة.

فقالت "الزوجة" بفُتورٍ تام: أنا في كاملِ قوايَ العقلية، أمِن المَعقولِ أن أجعلَ من نَفسي امرأةً زانيةً لأجلِكَ؟! إنني اضطررتُ فقط إلى إفشاءِ هذا السِرّ نظراً لثِقتِكَ البالغةِ في صديقٍ لا يستحقُّ مثلَ هذه الثِقةِ مُطلقاً، عَلاوةً على أنه الآنَ ليس عليَّ من حَرَجٍ، خاصَّةً بَعدَما أُفتضِحَ أمرُكَ أمامي، فالآنَ، لستَ أنت بأفضل مِنّي، ولا أنا بأفضل منك، فالشُذوذُ والخِيانةُ كلاهما وجهان لعُملةٍ واحدةٍ.

فقال "الزوج" في دَهشةٍ بالغةٍ: "أمين"!!

فقالت "الزوجة" باستفزازٍ: صديقُك الذي تثقُ فيه ثِقةً عَمياء! صديقُك الذي كُلَّما رأيتَه، تشعرُ وكأن الدُنيا تفتحُ أحضانَها لك! صديقُك الذي تخشى عليه من الزَواجِ! ها قد تزوَّجَني بالفِعل، بل وأنجبَ مِنّي أيضاً!

فقال "الزوج" مَصعوقاً من هَولِ هذه الصَدمةِ: يا للصاعقة! يا لضَرَباتِ القَدَر! بالتأكيدِ أن هذا ما هو إلا انتقام القَدَر على ما فعلته طِيلةَ هذه السِنين، صديقي يخونُني مع زوجتي! صديقي يُنجِبُ ابني، أو مَن كُنتُ أظنُّه ابني! صديقي يُدمّرُني ويُدمّرُ مَن حولي! إنه لا بُدَّ لي أن أقومَ سريعاً، وأستلَّ السِكّين، وأمزّقُه إرباً إرباً.

- لا تنسَ وعدَكَ إيّاي، إن قتلتَه.. ستُدمّرُنا وتُدمّرُ أسرتَك بالكامل.

- أسرتي! أين هي أسرتي؟! كيف لي الآنَ أن أحيا مع زَوجةٍ خائنة؟!

فقالت "الزوجة" باستفزازٍ: مثلما أحيا الآنَ مع رجلٍ شاذ.

حاول "الزوج" أن يتمالكَ غضبَه، واستطرد حديثَه قائلاً: كيف لي أن أحيا مع ابنٍ ليس بابني؟!

فقالت "الزوجة" بثِقةٍ مُحكَمةٍ: هذا يجعلُكَ تحيا بين الناسِ كشخصٍ كامل الرُجولةِ.. ليس عليكَ من حَرَجٍ.

فقال "الزوج" لإهانتِها: لا أعلمُ إن كان يجبُ أن أشكرَ الظُروفَ التي جعلتني أعرفُكِ حَقَّ المَعرفةِ، أم ألعنُ الظُروفَ التي كشفت لي كَم كُنتُ مَخدوعاً فيكِ طِيلةً من الزمانِ!

- اشكر الظُروف، والتي لولاها ما كان يمكنُكَ أن ترفعَ رأسَك أمامي خاصَّةً بَعدَما أُفتضِحَ أمرُكَ.

- ولكنكِ تُساوِميني، وتجعليني بين نارين! نارِ تَحمُّلِ خِيانتِكِ، ونارِ الخَوفِ من افتضاحِ أمري، أيمكنُكِ أن تخبريني.. ما الذي دَفَعَكِ إلى حِضنِ هذا الخائن؟!

- أنت الوحيدُ الذي يمكنُه الإجابةُ على مثلِ هذا السؤالِ، ولكنني أعِدُكَ أنها مُجرَّدُ نَزوةٍ لن تتكرَّرَ.. مع العِلمِ أنني لم أخُنك إلا مَرَّةً واحدةً فقط مُنذ سِتِّ سنواتٍ، أما أنت.. فماذا عنك؟

فقال "الزوج" سريعاً: إنني طلَّقتُ هذه المُمارساتِ الشاذَّةِ بالثلاثة، كَيفَ لي أن أعاشرَ مثلَ هذا الصديقِ الخائنِ اللعينِ ثانيةً؟! مَن خانني مع زَوجتي! وأنجبَ طِفلي! مَن دَمَّرَ حياتي! ، وأفسد أخلاقي! مَن جعلني مريضاً، بل ومُتيَّماً به! إنني الآنَ لا أطيقُ ولو مُجرَّد ذِكرِ اسمِه، ثم استطرد "الزوج" حديثَه بهُدوءٍ، مُراضِياً زَوجتَه قائلاً: إنه على الرغمِ من هَولِ الصاعقةِ التي أنزلتي بها عليَّ دُفعةً واحدةً، إلا أنني لستُ حزيناً بقدرِ ما أنا سعيدٌ الآنَ! سعيدٌ، لأنني لن أعودَ ثانيةً لمُمارسةِ مثلِ هذا الفِعلِ المُشين، سعيدٌ، لأن زَوجتي الحبيبة استطاعت وبدونِ قَصدٍ أن تُعالِجَني من حالتي الشاذَّةِ هذه، بَعدَ إدمانٍ دامَ أكثرَ من خمسةِ عشر عاماً! استطاعت زَوجتي أن تفعلَ ما لم يستطع فِعلَه كِبارُ الأطباءِ المتخصصين! أشكرُكِ يا زوجتي الغالية، ولن أعاتبَكِ يوماً على خِيانتِكِ هذه، لأن خِيانتَكِ هذه، على الرغمِ من مَرارتِها، إلا أن القَدَرَ جعلها سبباً في شِفائي تماماً! ولكن الآنَ، علينا بالسَفَرِ بعيداً، حتى نبعدَ عن هذا المُحيطِ الشاذ، وتلك الأجواءِ العَفِنَة، ونبدأُ سوياً حياةً جديدةً.

وهكذا قرَّرَ الزوجان الحياةَ سوياً، حياةً لا تشوبُها شائبةٌ، ويعودُ الفَضلُ في هذا، إلى الزوجةِ الذَكيةِ المُخلِصةِ، تلك الزوجةُ التي فَضَّلَت خِيانتَها في نظرِ زَوجِها على أن تهدمَ البيتَ والأسرةَ بالكاملِ، تلك الزوجةُ التي جعلت نَفسَها مُذنِبةً مثلها مثل زَوجِها، حتى لا تُشعِره بالذُلِّ والمَهانةِ أمامَها، تلك الزوجةُ التي لعبت دَوراً في مُنتهى الذَكاءِ، من قِيامِها بكِذبةٍ بَيضاء كان الهدفُ منها شِفاءَ زَوجِها تماماً من مرضه هذا، وكذلك الحِفاظَ على أسرتِها من الضَياعِ، تلك الزوجةُ التي على الرغمِ من رُدودِها الحادَّةِ في كثيرٍ من الأحيانِ، إلا أنها كانت تحملُ في طَيّاتِها الكثيرَ من المَحبَّةِ والوَفاءِ، تلك الزوجةُ التي استطاعت أن تُهدِّئَ من رَوعِ زَوجِها شيئاً فشيئاً حتى طابَ وأدركَ أن ما حدث ليس انتقاماً من القَدَرِ بقدرِ ما هو فَضلٌ منه، تلك الزوجةُ التي لو عرف زَوجُها بَعدَئذٍ ما فعلته لأجلِه، لقَبَّلَ الأرضَ التي تسيرُ عليها حُبّاً وتقديراً لها.

تمَّت..

شُكر خاص للكاتب الصديق ورفيق الدَرب / محمد مجدي يوسف

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار